

خَالِمُونَ

اسم الكتاب: حاملون «رواية»

alan blottère
rêveurs

تأليف: آلان بلوتير

ترجمة: بشرى أبو قاسم

عدد الصفحات: 132

القياس: 14.5 ❖ 21.5

2013/1000م - 1434هـ

© جميع الحقوق محفوظة

Copyright ninawa

دَار نِينَوَى
لِلنَّشْرِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوَزِيْعِ

سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: + 963 11 2314511

هاتف: + 963 11 2326985

E-mail: ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

[facebook.darninawa](https://www.facebook.com/darninawa)

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة

القسم الفني - دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة،

أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت

دون إذن خطي مسبق من الناشر

© édition gallimard 2012

الآن بلوتبير

حالمون

ترجمة

بشرى أبو قاسم

آلان بلوتير

- كاتبٌ فرنسي ولد عام 1954 في مدينة «نيلي - سور - سين - Neilly sur - seine» غرب باريس في فرنسا .

- كاتب روايات وحكايات سفر. يتنقل منذ عام 1985 للعيش بين فرنسا ومصر. تتصف أعماله بالهامٍ غريبٍ يستند فيه على التاريخ حيث يسبر أعماق الطفولة والمراهقة والعصور القديمة ويعرّج على بلدان بعيدة كمصر وجزر السند ليكتشف عوالم غريبة تبعث فيها انفعالاته الغائبة.

- حازت روايته الأولى «سعد» الصادرة عن غاليمار 1980 على جائزة vocation لعام 1981. وهي تروي حكاية رسام في نهاية القرن التاسع عشر، أقام في «تادجورا» على ضفاف البحر الأحمر وحاول رسم سعد عبده الشاب.

- كما حاز عام 1995 على جائزة أدبية على قدرٍ من الأهمية هي جائزة Valery Larbaud عن رواية «السحر L'Enchantement» calmanlevy حيث يصطحبنا إلى ضفاف النيل في مصر، باستضافة أمير قديم يملي مذكراته على زنجي ويودع بأمانته أسراره المعيبة.

- شهد عام 1988 ولادة رواية «سي أمون» Si - Amonn - Mercure de France.

- التي تحملنا للغوص في أعماق مدينة سيرين وهي مستعمرة يونانية في ليبيا في القرن الرابع.

- حظيت رواية «ضريح تومي» الصادرة عن دار غاليمار عام 2009 بشهرة واسعة.

- نشر عدة أعمال ومقالات عن مصر بعد أن انتقل للعيش فيها .
وها هو يطل علينا بروايته الجديدة «حالمون» التي تتساب دون عوائق من عالم لآخر.

كما يعد أن يرى عمله «جزيرة الكنز في رمال ليبيا» النور قريباً .

مُقَلَّمَةٌ

حالمون.... ليست رواية عادية هي دفقٌ من أحاسيس جياشة
ومشاعر متأججة تتوارى خلف كلماتٍ تأسرنا بانسيابيتها وترابطها
الساحرين.

كلماتٌ تسكن في جملٍ منمقة تخدم الأحداث لكنها تبحرُ في فيضٍ
من الذكريات يرتجف الفؤاد لصداها.

ترى هل تتحدث هذه الرواية عن الثورة الرقمية في شارع الدفاع في
باريس بالتوازي مع الثورة المصرية؟ أم عن أعباء المراهقة وسياط البيت؟ أم
عن الواقع الرتيب الذي «يلتهم بمجره الملل أحلى الذكريات»؟
إنها روايةٌ مؤثرة وجميلة، تقوم على أساسٍ شكلي شديد الوضوح،
مشهدٌ مزدوج يعبر خلاله آلان بللوتير من مشهدٍ لآخر بجملته هي «المفصل»
حيث يبدأ المشهد الأول في باريس وينتهي في القاهرة ويعود بالعكس.

أبطالنا مراهقان يتيمان: ناتان يعيش في باريس وجمعة في القاهرة.
لا تربط بينهما أية علاقة إلا أنهما متقاربان «كأنه صورته في المرآة»
فكلاهما يسعى للهرب من عدوانية الواقع، يغرق ناتان في ألعاب الفيديو
ولعبة «الوشاح» أو «الحلم الهندي» حيث يخنق نفسه حد الإغماء، أما جمعة
فيحلم بـ «الرحيل» والسفر إلى فرنسا.

الأول ابن رجلٍ غني مدلل تحيطه مانون الجميلة بحبها أما الثاني
فابن شوارع، لا يتقن القراءة ولا الكتابة يعيش من بيع «علب الكرتون»
ويشارك في الثورة المصرية المعاصرة ويحلم بفاطمة أخت عزيز.

يعلق ناتان نفسه بقضيبٍ في خزانة الثياب ليخنق نفسه «بلعبة
الوشاح» في حين يرى جمعة نفسه معلقاً عند «الرجال ذوي الزي الأسود»
لتعذيبه.

يتحاشى ناتان تحرش صديقه الشاب - الوسيم - في حين يبحث
جمعة عن جثمان صديقه المفقود بين شهداء مظاهرات ساحة التحرير.
لا تتصارع هاتين القصتين بل هما قدران مسكينان ومأساويان تحت
الشمس.

يتقن الكاتب العزف على الكلمات ليشدنا بعذوبة اللحن.

غريبٌ هذا الابتهاج الذي غمره حين لمح رفات والده تحت دفيقٍ من البتلات حمراء اللون عطرة، تتناثر في وميض ضياءٍ يفلت من عنف الصواعق فتهب نفحاتٍ من السعادة تملأ روحه، وتتجدد مع كل برقٍ يرافق الحركات اللاإرادية للميت، ينبض جفناه وترتعش خنصره، مازال دافئاً تحت البتلات. أخيراً، تشق ابتسامةٌ غمار الضباب. ليكتشف أن والده يمثل أحد الأدوار الحمقاء التي يملك أسرارها والتي تليها دوماً ضحكةٌ مجنونةٌ تتخطى كل الحدود، حتى الآن حين يحيا والده من جديد بعد خداعٍ مأكبرٍ. ضحك أيضاً حين دفعته إحدى النسيمات في شارعٍ تتلألأ في ليله النجوم بألقٍ على جدران البيوت الصغيرة. على الذراع الأيمن لحي رودان، تغفو المنازل في جنح الليل ثم تتبعثر بوميضٍ أخاذ على المنحدر حيث يمرر يده على الجدران.

أما على الذراع الأيسر، فتشرّب أنوار بولونيا ووزارة الدفاع من جهة مولاند لتلوح موحيةً بلوس انجلوس.

فجأة خفت الأضواء وأبصر ناتان النهار مجدداً بسماءٍ زرقاء خريفية تشارف على المغيب مع ذات الضياء الذي أبصره قبل الحلم الهندي. ينحني أصدقاؤه فوق رأسه وهو يحوم في دوامةٍ من ضحكات نيكولا وراف والصور التي تلتقطها جوستين بجوالها. غاب وجه أليكس ومانون في انعكاس الضوء.

وهو مازال مستلقياً على عشب حديقة رودان الأخضر، طرحه الدوار أرضاً حين حاول النهوض فسقط كحجرٍ من علٍ وقد أمتعته شعوره بفقدان

التوازن، وتلك السهولة التي يعبر من خلالها من هذا العالم إلى عالمٍ آخر بأقل من الثانية ليتلذذ بخيالات خارقة، لا تتجاوز بالحقيقة عشر دقائق. حان الآن دور أليكس الذي دائماً ما يكتفي بطريقته اللطيفة دون اختناق، إذ يجلس القرفصاء ويبدأ بالدوران إلى أن تتسارع أنفاسه رويداً رويداً خلال ثلاثين ثانية فينهض لاهتاً، يحبس أنفاسه حتى يفقد وعيه لست ثوانٍ، التقطه نيكولا بين ذراعيه ومدده على العشب ريثما يعود للوعي. تمنحنا هذه اللعبة شعوراً غريباً وعبيراً بالوجود وتضفي عليه بعضاً من الصور الخفية، هذا كل شيء.

يفضل ناتان الاختناق، بل يستمتع بالاختناق حيث تسري في جسده نشوة العالم الآخر بانبهارٍ عجيب، يُرسل الدماغ حين يُحرم من دفق الدم أوامراً مشوشةً إلا أنها رائعة، فمتعة الحياة تبدو جليةً لحظة الموت نفسها. هذا هو الحلم الصيني أو لعبة الوشاح والتي يمكن تطبيقها بحزامٍ أو باليدين أو بأي وسيلةٍ أخرى، إن لم يكن يرغب بالموت عليه إرخاء الشريان السباتي باللحظة نفسها التي يهجم فيها الموت. أحياناً يرافق هذه اللعبة تغطوطٌ لاإرادي.

جوستين هي حبه الأول قبل مانون، كان عمره خمسة عشر عاماً حين وافته جوستين وفتحت زر بنطاله وهو في غمار مباراة (Zelda 3D) داعبته وقد أخذته الدهشة فما تبادر لذهنه أبداً أن تسحبه إلى سريرها الوردي، سرير فتاةٍ صغيرة. كم تغيرت منذ ذلك الوقت. كانت تلهث كما لو أن رثتها جهاز تنفس وهو بعد ما أقدم على شيء، فتساءل في سره ترى هل تقلد ما تراه في أفلام البورنو أم أن الفتيات يلهثن بوجود أو بغياب الكاميرا.

في تلك الأمسية، طرح هذا السؤال على والده، يدفعه الفضول ولكن أيضاً الخيال، فأجابه والده أن هذا أمرٌ يختلف من فتاةٍ لأخرى ثم فتح والده زجاجة شامبانيا نخب ابنه، رغم علمه أنه لا يحب الشامبانيا.

على كل حال، حان الآن دور جوستين وها هي تلهث مصدرةً ضجيجاً لأنفاسها كما لو أنها تمارس الحب لا الحلم الهندي. وعندما انتهت، غادروا جميعاً الحديقة العامة.

تستعرُّ ألوان الخريف في أشعة الشمس لتتشر طقساً لطيفاً رائعاً، إلا أن ناتان دائماً ما يشعر بالضيق لا بل يكابد الألم حين يحط الرجال في الحياة الحقيقية بعد رحلة للعالم الآخر، فما زال أسير انفعالات حادة تكسر بشكل مفاجئ تفاهة هذا العالم وملمه، هو الشعور ذاته الذي يراوده لدى خروجه من السينما أو انتهائه من أحد ألعاب الفيديو.

وافق أليكس ومانون على الذهاب مع جوستين إلى منزلها فقد حصلت على قردٍ شمالي كهديّةٍ لعيد ميلادها بالإضافة لشاي معطرٍ. أما نيكولا فقد اعتذر عن المجيء فعليه أن يقوم بواجب الرياضيات، كما أن راف تذرع بأخته التي يجب أن يحضرها من المدرسة.

أسوء ما يراود ناتان بعد ليلته الهندية، هو الذهاب لمنزل جوستين والإصغاء للروك طويلاً، فهذه الموسيقى التي يسمعها حد الصمم تعجل من عودته للواقع، كما أنه قد اشترى عبر الانترنت منذ شهرٍ تقريباً لعبة Suck It And See و يفضل لعبة Arcade fire.

لم يكن ناتان يدري إلى أين يذهب لئلا يفقد الذكرى التي يخلفها مرح الحلم خطر له أن يعود إلى جادة رودان، إلا أن هذه الفكرة العابثة سترمي كل مرحة في العدم بعد أن يرى حقيقة البيوت الصغيرة. تماهت الصور وفقدت إطارها، لا بد أن عطر الورد أفقده وعيه.

خرج من الحديقة متجهاً نحو شارع الدفاع ثم نحو شوارع إيسي الهادئة عساه يجد زاوية نائية لينفرد بنفسه، ظلاً رطباً ليتسنى له أن يغمض عينيه. فجأة لاحت أمامه كنيسة «سان إيتين». لطالما مرَّ أمام هذه الكنيسة، ربما ألف مرة، فصديقته مانون تسكن على مقربةٍ منها بنفس الشارع، ما دخلها قط فهو مثل والده لا يؤمنان بأي إله. سحرته هذه

الزخرفة المعتمدة رغم أنه ما فهم منها شيئاً خلا صورة يسوع المسيح الكبيرة أما الرسومات على الزجاج أو اللوحات خلف القناطر فكانت بالنسبة إليه مبهمَةً تماماً. تساءل في سرّه « ترى هل يحق لي الجلوس على أحد الكراسي؟ » قبل أن يلمح امرأةً عجوز تحني رأسها بين كتفيها وتغفو، ففعل مثلها وقد فُتِن بالهدوء والعتمة وسرته رائحة البخور الغريبة التي تشبه رائحة المخدر. تتخلل أشعة الشمس من زجاج النافذة وتتمايل على البلاط فترسم لوحات ملونةً سلبت لبه. أخيراً عثر على زاوية ليغمض عينيه ويلاقي والده المتوفى، فهو لا يرنو للاحتفاظ برسم جادة رودان في مخيلته وإنما جثمان والده الذي يرتعش تحت البتلات...

التي يذكرها جمعة ويذكر أنه وفي عمر السادسة كان يؤويه شيءٌ ما مثل السقف، وها قد مرت عشر سنوات ولا يزال أسير وساوسه و ما زال سره دفيناً.

غُسل جثمان والده وألبس بنظالاً وقميصاً، لم يكونا له، ثم مددوه على فراش الزوجية وبعثروا بضع زهورٍ من الياسمين على رفاته الرخو كقط ميت. توافد أناسٌ لم يتعرف على وجوههم وشرعوا بالصلاة، فهم جمعةً حينها أن والده وافته المنية. سمحوا لوالدته بالدخول بعد أن فرغوا من عملهم. كانت والدته تتوح مصدرّةً ضجيجاً أمام الباب المطل على الشارع منذ ساعة تقريباً، وقد أمسكت بها الجارات اللواتي لم يعد يذكر أسماءهن. ما إن لمحت جثمان زوجها تحت الزهور حتى بدأت بالعويل فبكى جمعة خوفاً، وغرق بأموحٍ من الناس يدخلون ويخرجون، جيران وأقارب لم يعد يذكرهم تماماً. اقترب من السرير حيث يرقد جثمان والده بعد أن مسح دموعه المنهمرة، ودَّ تقبيل جبين والده كما فعلت والدته، إلا أنه لم يصل إليه وما ساعده أحدٌ ليقوم بذلك، فاكتفى بتقبيل يده التي ارتعدت تحت شفتيه، إنه على ثقة بأن يد والده قد تحركت، فصرخ يقول لوالدته

«إن والدي لم يمتهن!»، لم تصغ إليه والدته وأمره الجميع بالتزام الصمت. كيف يمتهن؟ كيف له ألا يصرخ ووالده حياً يرزق؟ كيف لا يرفع صوته وكل الناس من حوله مخطئون؟ والدي مازال يتحرك، لعل بوسعنا نقله إلى المستشفى؟

ألحوا على جمعة أن يمتهن إلا أنه استمر بالصراخ حتى طغى صوته على نواح والدته فاستدارت نحوه، لم تكن تبكي، وصفعته بقوة تفوق العادة وطلبت من الأقارب إخراجها، فركله أحدهم إلى الشارع. جلس على الوحل الذي خلفته أمطار ليلة أمس ثم لطّخ ذراعيه ووجهه بهذا التراب النتن، بقصد أن يزعج والدته خلف الباب الموصل لأنها توصلت لقتل والده الذي أحبه حباً جماً تحت سقف بيتهم الطيني.

سرد هذه الحكاية لمن رغب بالاستماع إليه في شوارع القاهرة في الحي العلوي لدار السلام حيث يهيمن البؤس ويكتظ السكان بشدة لدرجة أن أطلق عليه اسم «الصين الشعبية»، تبناه هذا الحي البائس فروى لهم كيف سقط والده من الطابق السادس في إحدى ورش البناء، ثم نقلوه ميتاً إلى المنزل، إلا أنه كان على قيد الحياة. فشرحوا له أن أجساد الموتى تنتفض بحركات لإرادية حتى أنهم قد يصدرون أصواتاً لإرادية، فلكان هذا الحي خبرة ضارية بالعمق مع الموت، إذ كثيراً ما يزورهم لينتشل من سقط ضحية الصخور التي يقوم عليها هذا الحي والتي لا تكف عن الانهيار حاصدة معها أرواحاً عديدة.

رغم هذا، ففي كل مرة يصادف فيها رجلاً يشبه والده أو بالأحرى يشبه الصورة الغامضة التي تلوح في مخيلته، يعجز عن مقاومة التفكير بأن هذا الرجل هو والده فيرغب أن يركض للقائه ويقول له: «بابا هذا أنا جمعة ألم تتعرف علي أنا ابنك»، لكنه ما فعلها حتى الآن خشية أن يتسبب له بالحرج لو حدثت معجزة «أن يكون والده»، فهو يرتدي ثياباً رثةً للمها من الحاويات.

إنه على موعدٍ مع صديقه رجب أمام الصالة الصغيرة التي تردف الجامع، بجانبه بائع الفروج ذي الرائحة النتنة، لاحت أمام ناظريه صورة والده الذي يرتعش جثمانه تحت الأزهار خلال الوقت الذي انتظر فيه مجيء رجب، حيث شاهد القاتل ذا الدم البارد يقطع رقبة الدجاجة ويرميها ليتم نتف ريشها .

هل مازالت على قيد الحياة! رأها تتخبط على الدف الخشبي، رأى أحد فخذها يرتعد، ثم طرحها «عزمي» على طاولةٍ حجرية وفصل رأسها ونظف أحشاءها .

تغمد الله جدته عزيزة برحمته بعد مضي عدة أشهر من وفاة ابنها، لقد كانت تحضّر في أيام المناسبات «ملوخية بالفروج». ما عاد يذكر متي تذوق الفروج لآخر مرة.

يتناول سكان الحي العلوي لدار السلام الفروج مرةً واحدةً خلال الشهر أما من يسكنون الحي السفلي فيتناولوه لمرتين أو ثلاث مرات.

محل عزمي يقع بالفراغ بين الحيين فهو يشجع صغار الموظفين في الحي السفلي بالصعود إليه لشراء الفروج الذي يعادل يومي عمل رغم أن عزمي يبيع الفروج بسعرٍ أقل من غيره بليرتين، فيشجع أيضاً المياومين في الحي العلوي بالمجيء إليه لشراء فروجٍ يعادل بالنسبة لهم عمل ثلاثة أو أربعة أيام.

أما جمعة فلا تراوده أبداً فكرة شراء دجاجة مهما كانت الظروف فهو يفضل تناول الفلافل ذي رائحة القلي الشهية والفواحة، يلفه بخبزٍ ساخن مع القليل من الخضار، مما يضيف عليه متعةً لذيذة.

ضرب موعداً مع رجب هنا في الفراغ الفاصل بين الحيين حيث يشق الدرج طريقه الوعرة بين الصخور، بين حطام المنازل التي أمر الحاكم بهدمها قبل أن تنهار من تلقاء نفسها فتصدر الصحف بكوارتها .

يمتد الحي خلف الصخرة، ركام من الأبنية بلا شكل ولا هوية

معمارية، إذ بُنيت بشكلٍ مخالف، أبينّة ذات قرميد أحمر، تتوقف عند الطابق الخامس حيث تزدهر الأقواس تتراوح الماء والكهرباء فتارةً مقطوعة وتارةً موجودة، يتعلق هذا بتحويل الماء أو برشوة موظفٍ صغيرٍ من الحي السفلي.

بنظر الحاكم هم ليسوا سوى مئات آلاف من المواطنين فلا حاجة للشوارع التي إن بحثت عنها لوجدتها تأن تحت طبقة من الأوساخ المتراكمة حيث تطفو أكياس النايلون التي لا تطالها العفونة، يجد الكلاب والذباب في هذه المتاهة التي ترسمها هذه الأزقة الضيقة مرتعاً آمناً لهم، وكذلك الأطفال الذين لا يجدون من الطعام إلا ما يبقينهم على قيد الحياة.

ترعرع جمعة وحيداً في أحضان هذه الأزقة الشائكة بعد أن طردته والدته بعمر الثامنة نتيجة زواجها الثاني. في بعض الأحيان، تضمه مجموعة لأطفالٍ مشردين بثيابٍ رثة سرعان ما يغادروه، فليست أزقة الحي العلوي بجنة عدن وإنما مملكة متواضعة يحفظون أدق تفاصيلها بل كل مخابئها السرية حيث يمكنهم الاختفاء حين يباغتهم الرجال ذوو الزي الأسود.

هناك نحو الأسفل، يلوح عالمٌ يعجُ بالسكان بأزقةٍ محدودة الطول تبدو كحزوزٍ ضاربةٍ بالعمق والعتمة في كومة هائلة من الأبنية القذرة المثقلة بكل ما يتبادر لذهنك من محلات بيع تقاسموا فيما بينهم السهول الغافية على ذراع النيل والتي طالما تمت زراعتها.

أزقةٌ بشوارعٍ غير مكسوة بالزفت لا أرصفة لها حيث يتدافع الحشد المزدحم بشكلٍ دائماً ويتخبطون في المرات القليلة التي يجتاز فيها هذا الزقاق طنبرٌ يجره حصان أو تكتك وبالنادر جداً تجازف سيارةٌ بالعبور.

يحد هذا الحي من الغرب سكة الحديد ومن الجنوب حقولٌ نجبت بأعجوبة من برائن التجار. عندما تجتاز هذه الحدود يمكنك أن تلمح حياً رفيع المقام هو حي المعادي، ضرب جمعة موعده مع رجب عند نهاية الحدود.

رجب صديقه الذي ربط بينهما اليأس علاقةً يصعب نزعها حتى أن أهل الحي أطلقوا عليهما «القشطات» وهي بيادق لعبة النرد الأسود والأبيض، عندما كان يعمل جمعة لدى الفحّام ورجب عند الخباز، حتى عندما تركا عملهما في الصيف هرباً من الحر الذي يلقيه الفرن على طبقتي الطحين والسخام التي تكسوهما . بقيا «القشطات» حتى حين كان جمعة يجمع العلب الكرتونية الفارغة ويبيعهها حسب الوزن وعمل رجب كبائع متجول للمحارم الورقية .

إنها أمسية الخامس والعشرين من يناير، وها هي صور المتظاهرين في ساحة التحرير تعرض بتحدٍ على قناة الجزيرة. قرر كلٌّ من جمعة ورجب الانضمام إليهم بعد أن قارنوا أعداد الموالين والمعارضين .

واجه الموالون للثورة شرطة مكافحة الشغب وتوعدوا بالعودة غداً فحلمهم بالتخلص من قائد الرجال ذوي الزي الأسود «حسني مبارك» كان يقوي عزيمتهم، إذ كلما ازداد عددهم وقويت عزيمتهم كلما وجد حلمهم الحظ الأوفر ليتحول إلى واقع ملموس .

يستحي المعارضون للثورة من هيبثهم وأمتعتهم وقذارتهم أمام شبان الفيس بوك .

اقترح جمعة فكرةً نالت إعجاب الجميع وهي الاغتسال من صنبور قاعة الصلاة في الجامع حيث بوسعهم تبديل أحذيتهم أيضاً .كأنه وقت صلاة الظهر، دخلوا الجامع ووقفوا أمام صنابير المياه وبللوا رؤوسهم غير آبهين ببرد الشتاء ودعكوه بالماء والصابون وكذلك أذرعهم وأقدامهم كما لو أنهم ينوون الوضوء بيد أنهم لا ينوون الصلاة .

ما نوى جمعة قط الصلاة في الجامع فما اكرث أحد يوماً ليعلمه ذلك، عادةً ما يرتاد الجامع لأسباب أخرى، بحثاً عن الأمان من الرجال ذوي الرداء الأسود أو ليحظى ببعض الظل والرطوبة .

طالما استحوذت واحة السلام هذه على جمعة بصمتها وهدوئها رغم

صخب الحي، تخطفه النشوة السماوية التي تداعبه فيتلذذ بسحرها طويلاً، لكن الآن لا وقت أمامه فالصلاة سرعان ما تنتهي. اعترضه رجب بعد أن تم الاتفاق بمبادلة الأحذية عند عتبة الجامع بشرط أن يعيد كلٌ منهم حذاءه مساءً، هذا هو الشرط الوحيد لاستبدال أحذيتهم القديمة البالية بأحذية شبان «الفييس بوك». رغم ضيق الوقت اتكأ على أحد الأعمدة لينعم بقسطٍ من السلام فأغمض عينيه...

ترأت له صورة جثمان والده في الكنيسة، تتماهى صورته رويداً رويداً في عالم النسيان فتضيع حدودها وتتلاشى ألوانها وتشتع في دنيا الأحلام، لم يحتفظ سوى بذكرى ذاك الشعور الغريب بالسعادة التي ملأت قلبه برؤية والده ميتاً، لماذا يا ترى فرّحه موت والده؟ أليس هو الشخص الذي يجب أن يحبه؟ أليس هو الشخص الذي يجب أن يريعه غيابه أكثر من أي شخصٍ آخر؟ ألم يكن ليجد نفسه وحيداً دون والده في حضن عائلة تتبناه؟ أليس هذا والده الذي دلّله كثيراً وأفرط بدلاله بعد وفاة والدته بحادث سيارة وهو بعد ما أتم السابعة؟

إنه والده الذي غمره بحبٍ عارمٍ ولا يرفض له طلباً مهما كان كبيراً، والده الذي راعى مشاعره لأبعد حدٍ فما تزوج مرةً أخرى بل وما انتزع صور زوجته المفقودة لئلا يتسبب له بالألم، رغم أنه تشارك الحياة تحت سقف واحد مع عدة نسوة بدءاً بماريون ثم لويز ثم أنا لتعود مجدداً لويز. والده الذي يعطيه بسخاءٍ فهو يقدم له أربعين يورو كمصروفٍ في الأسبوع.

لماذا أدخل موته الحبور إلى قلبه؟ هل يكرهه إلى هذا الحد؟ لأنه كان يلحُّ عليه عبثاً بالحد من هوسه بالألعاب الفيديوية؟ أم لأنه كان يمضي الليل مدققاً على ملاحظاته ووظائفه وعلاقاته؟ أم لأنه يفرض هذه الواجبات المرهقة مقابل هدايا مقيمة مثل زيارة جدته الشبه مجنونة أو إمضاء عطلة عيد الفصح مع أبناء عمه المعتوهين؟ لم يبدُ كل ذلك سبباً كافياً ليرغب

بموت والده. إذاً ما الذي دفعه إلى هذا الحلم؟ هل يدلُّ على حقيقة هاربة في أعماقه أم بالعكس؟ أم أن سوء تصرفه يحمل أفكاره لتغمرها الدهشة حدَّ الاستمتاع بالمطلق والمجهول الجذري واللعب بالمشاعر الأكثر توطداً؟ كيف له أن يعرف حقيقة مشاعره؟ ليس له سوى أن يسارع بممارسة حلم هندي جديد. رنةٌ جوال تقشع عنه الأفكار فيفتح عينيه ليرى السيدة العجوز الجالسة على المقعد وقد استدارت نحوه وهمست بجملٍ مبهم، يبدو أنها غير لطيفة.

أجاب على هاتفه وإذا بمانون تلح عليه بالمجيء إليها فوراً فهي تود التكلّم معه ولكن وجهاً لوجه، تدزّع ناتان أن عليه التدقيق بقصة ما فهو يفضل اللعب بـ «Serious Sam3» التي حملها عن شبكة الانترنت ليلة أمس، إلا أن مانون أصرت وكأن المسألة مسألة حياة أو موت.

فجأةً اختفت البقع الملونة على البلاط الحجري وانقلبت الكنيسة باردةً وحزينة مثل مدخل قبر.

تسكن مانون على بعد 200 متراً من الكنيسة في مبنى أنيقٍ وحديثٍ في شارع جيل - غوسد. ترغب بمزاولة مهنة المحاماة مقتدياًً بوالدها الذي يعمل قاضياً في المحكمة، أما ناتان فكان يراها أسوء مهنةً على الإطلاق إذ يرافق كل الجرائم، حسب رأيه، ظروفًا مخففة من جنونٍ وغيره وطفولةٍ مدمرة وبؤسٍ كما أن لإغراء الثروات المترامية تحت أنظار الفقراء سواء كانت جامدة أم مجرد شهوات ضلعاً في هذه الجرائم.

يختلف ناتان ومانون بهذا الرأي، فناتان يُبرِّء كافة المجرمين في حين أن مانون تجد في القصاص حياة وتؤيد عقوبة الإعدام لقاتلي العجائز والأطفال، وتوافق على عقوبة الأشغال الشاقة للقاصرين مهما كانت الجنحة. إلا أنهما يتفقان في نقاط أخرى عديدة مثل كرههم للمدرسة ولكل المواد التي يتم تدريسها بالإضافة لبرامج التلفاز ما عدا بعض المسلسلات الأميركية. كما أنهما يكرهان رؤية الدم والروائح المقرزة التي تفوح من

الناس في المترو أو في الصالة الرياضية وينفران من رائحة الجبنة القوية ومن رؤية أفلام البورنو، إنهما يرفضان كل أشكال القذارة والحشرات ولا يطيقان تنظيف السمك من الحسك لتناوله ولا دهن بعض اللحوم.

نعم إن ما جذب ناتان إلى مانون وأبعده عن جوستين هو اشمئزازها مما هو قدر فمانون فتاة هيفاء رشيقة، يلقي شقارها طيفاً من الشحوب على وجهها لتشبه «Venus de Botticelli» المصورة في بطاقة بريدية فوق مكتب والده. كما أن شعر جسدها ستارٌ حريريٌ لبنيٌ يكاد يكون غير مرئي. لم تكن مانون تلهث أو تتنفس مثل فتيات أفلام البورنو عندما يمارسان الحب أيام الأربعاء أو في بعض أيام عطلة الأسبوع كما أنها تسرع لتأخذ حماماً قبل أن تطفئ الروائح الخاصة على العطورات التي تنثرها، هذا ما يفضله ناتان الذي يثير اشمئزازه الاحتكاك ببشرة الآخرين لذلك فهو يفضل ألا تطول تلك اللحظات أكثر من الوقت اللازم لإشباع طبيعي لرغباته والتي يجد أنها أكثر امتاعاً بممارستها شخصين لا بمفرده ومع فتاة لا مع صبي، هذا ما تحقق منه بعد تلك الأمسية التي أقنعه فيها راف بأن عليه تجريب كل شيء وأن الفضول يكشف له متعة اللهو مع الصبية ولكن سرعان ما ارتطمت هذه المحاولة باليأس فالاستمناء المتبادل أكثر مللاً من التمرينات الرياضية.

بدا الاضطراب جلياً على ملامح مانون حين فتحت له الباب وسحبته إلى غرفتها في شقة ذات سقفٍ منخفضٍ لا غرابة فيها ومفروشة بفرش سويدي يجده ناتان كارثي ولم تغير الشمس اللطيفة التي تخترق الزجاج لتضيء المنزل من منظر ذلك الفرش.

أشارت مانون إلى الحاسب وطلبت منه أن يرى ما ظهر على الشاشة حيث كان هناك «معلومات حول لعبة الوشاح» «الحلم الهندي» ضمن تقرير تم إعداده إلى «السيد وزير التربية الوطنية»، تساءل ناتان في سره: كيف تمكنت مانون من الوصول إلى هذه المعلومات. ربما بساعات من البحث

الدووب عبر موقع « google » وبالتتقيب بالصفحات 20 أو ربما 30. لماذا؟
ماذا تريد أن تعرف؟ ما الذي لم تعرفه بعد؟

ما إن قرأ الأسطر الأولى حتى فهم ما تريد :

« لعبة الوشاح هي لعبةٌ تتم ممارستها بمفردك أو ضمن مجموعة لتسبب حالة إغماء خلال مدة قصيرة، إنها لعبة شهيرة تخلق أحاسيساً فريدة وتلقي نوعاً من الحبور. ولكن للأسف لهذه اللعبة أضرارٌ خطيرةٌ على القلب والأعصاب كما أن نتائجها قد تكون حتمية.

تساءل ناتان: حتمية أي مميتة؟

فأجابت مانون بلهفة:

- نعم! تابع القراءة.

يشقُّ على ناتان قراءة ست عشرة صفحة، فأردف بالقول:

- يريدون القول أن هذه الممارسة قد تكون خطيرةً على الصحة أو حتى قاتلةٍ إنها مثل أي شيءٍ آخر يا مانون، ركوب سيارة أو طائرة أو دراجة، ربما التزلج حتى تناول الطعام قد يكون محفوظاً بالمخاطر.

كان ناتان ينطق دون أن يعي ما يقول تماماً، فهو غير مقتنع بأن قطع الأوكسجين عن الدماغ هو أمرٌ عاديٌّ مثل تناول اللبن، فاللبن ذو نكهة الفراولة لا يضيف سوى إحساساً محدوداً بالاكتفاء خلافاً للحلم الهندي الذي يحمله على جناحٍ من الإحساس والمتعة لا يضاھيه أي نشاطٍ آخر، حتى التدخين الذي يترك في الفم طعاماً كريهاً.

تمضي الحياة مُثقلَةً بالسأم ومُضجِرةً بهدوئها، لقد زهد من هذا العالم الفارغ المقيت الذي ينتظر بملل بضعة أحداث ليسري فيه بعض الاضطراب، إنه يجد في هذه اللعبة ما ينور ملل الأيام المقيت وما يلون ليلاً لا قمر فيه بألعاب نارية تضيء البهجة في النفوس.

انفجرت مانون باستغراب شديد وبدا أنها لم تعد تسيطر على

نفسها :

- إنك أحمق يا ناتان! أنت تعلم أن هذا لا دخل له بموضوعنا . إنني أمنعك من اللعب مجدداً بهذه اللعبة الخرقاء!

طبعاً لم يكن باستطاعتها منعه من شيء إلا أن ناتان قرأ في عينيها مقايضة لم تجرؤ على قولها فإما هي أو الحلم الهندي، إما أن يمتنع عن الحلم الهندي أو هو شقاقٌ بينهما .

أضافت مانون: «أقرأ على الأقل الصفحة الأولى لا بل الأسطر الأولى». ثم مررت الصفحات حتى وصلت إلى الصفحة التي تحمل معلومات هامة: «يتسبب الهيبوكسي بتوقف القلب ذي نتائج تتراوح بين الخطيرة جداً والأقل خطورة، فمن وجهة نظرٍ عصبية فإن دورة «خفق - اختناق - إغماء» تجرُّ آثاراً خطيرةً على الدماغ، وبعواقب وخيمة قد تصل إلى تدميرٍ نهائي لبعض الوظائف فتحول لاعبها هشاً «كالخضار» إلى أن ينتشله الموت.»

لم يكن ناتان يعلم أن أحد قواعد اللعبة هو ثلاث دقائق، نعم، لقد قرأ ما كُتب «ثلاث دقائق» يجازف فيها بالموت، إن هذا شديد الإثارة. عادةً، يكتم أنفاسه ويدع نفسه يختنق لعشرات الثواني، أخبره نيكولا ألا يتجاوز خمس عشرة ثانية. هناك فرقٌ شاسع ما بين خمس عشرة ثانية وثلاث دقائق، إنه هامش يثير الفضول بالاستكشاف.

خاطب ناتان مانون قائلاً:

- مانون، تحدثوا عن ثلاث دقائق، أنت تعلمين أنني لا أمارسها إلا لخمس عشرة ثانية فقط.

لم تتوقف مانون عن الصراخ، اعتبرته أخرقاً إذ لا داعي للاستسلام لما يحيلنا بهشاشة الخضار أو ربما عاجزين أو مصابين بالشلل، لم يعد ناتان يصغي لهذا الحوار الطويل الذي يعجُّ بالأدلة الخرقاء، صار يراقب حركات فمها الذي يصدر بلهجةٍ محتدة فيها بعض الرعب. تأثر بأنها لا ترغب أن تفقده لكن الملل تملّكه. لا يرغب أن تربط بينهما علاقة «زوجين»

يكفيه أسر والده والمدرسة والحي كما أنه سجينٌ لفقدان الأمان مساءً في القطارات السريعة.

استاء ناتان من هذا الخطاب ذي البراهين الواضحة والتهديدات المبطنة بأن تخبر والده، فانتابه الدوار وبدأ بالتأفف، شقَّ عليه البقاء في هذه الغرفة، ودوى في أذنيه خطوات الجيران في الطابق الذي يعلو هذا القبو حيث يسكنون فنهض عن كرسيه الدوار، ثم اقترب منها وأمسك بذقتها برقة متناهية، قال:

«هدئي من روعك، لا تقلقي، أنا أعرف ما أفعل. لن أموت».

هدأت فوراً إلا أنها أجهشت بالبكاء فطبع قلبه على شفيتها الحزینتين، وغادر غير آبه لصراخها المتأوه ورجاءها له بأن يبقى. بدا المصعد بطيئاً، وشارع جول - غوسيد كئيباً ومقفرأ لا يتحدى هدوءه سوى رجل ينزه كلبه، أغمض عينيه في طريق عودته إلى شارع رودان فلا يرى «أعالي إيسي» الحي السكني الناصع بأشجاره وأزهاره المتصنعة التي يجهلها تماماً.

لم تتجاوز بعد السابعة مساءً، لديه متسعٌ من الوقت ليحرب لعبة «Serious Sam3» التي ما تمكن أليكس من تركها قائلاً: «حقاً هي لعبة إطلاق نار بسيطة وغبية جداً لكنها في إطار مصري خلاب».

لساعة قبل وقت العشاء سيهرب أخيراً...

إلى هناك خلف البحر الشاسع حيث يزدهر حلمه، حلمه بعمل ذي مردود جيد يساعده على ادخار يشتري به عند عودته إلى مصر منزلاً مفروشاً بأفضل تصميم وجوالاً وحاسباً وسيارةً ويبني له عائلةً صغيرة، هناك خلف البحر مترامي الأطراف يلوح الحلم في أوروبا في فرنسا حيث هاجر صديقه محمد في السنة الفائتة عبر معابر ليبيا.

ترى هل سيتمكن امتطاء العالم الأفضل هارباً من دار السلام من

القاهرة من مصر؟ حلمٌ يداعب كلَّ اليافعين في دار السلام، عشرات آلافٍ من الصبية يحلمون بالهجرة إلى أوروبا وتتفاوت أحلامهم بحجمها ولونها وجمعة واحدٌ منهم يحلم نفس حلمهم ويراوده في كل ساعة، يتمزق بين حلمه وشوقه، شوقه الدائم للشوارع التي ترعرع فيها وأصدقائه الذين شبَّ بينهم. كيف للفراق أن يخطفه من رجب الذي تجرَّع معه كؤوس الحياة وتقاسم كل الأسرار وغفياً معاً تحت جناح الليل؟ كيف له أن يترك مصطفى المخنث ذي الصوت الشجي والذي يقصُّ لهما شعرهما ويداعبهما بحميمية! وكريم المُقعد الذي يكابد في المسير بعد أن التوت ساقه لأن الشرطي دَعَهُ نحو الجدار عن بعد عشرين متراً، كريم الصغير ذو الأربعة عشر ربيعاً والذي لا ينفك يضربه بخمسة وعشرين قرشاً! كيف ينسى ياسين جامع الريش، أجمل شاب بالحي بشعره الأشقر وعينيه الزرقاويين وأردافه البدينة التي يعيرها طوعاً فهو ذو قلبٍ طيب. كيف يفارقهم جميعاً، رفاق دربه؟

الآن سيهرب جمعة ورجب من دار السلام ويلتحقا بعاصفة تهبُّ في مركز المدينة أملاً ألا تتحسر. تنثر ريح الغضب في السماء رائحةً فواحةً للحرية والثورة.

ليس بحوزتهما ليرتان ثمن بطاقتي المترو لذلك قررا الوصول إلى أسفل الحي وعبور الجسر الذي يعلو الطرقات سيراً على الأقدام ثم وصول كورنيش النيل هناك سيتمكنان من التعلق بإحدى السيارات المارّة. ينتعلان حذاءين قديمين لا يتناسبان مع موضة الفيس بوك، لكنهما خُفَّان يسهلان لهما العبور والركض بخفة، خرجوا من الجامع قبل نهاية الصلاة وحثوا الخطى باتجاه الأدرج الأقرب.

اجتمع حشدٌ من الناس أسفل الدرج مزمجرين يسودهم الاضطراب وتموج فوق رؤوسهم أعلامٌ بألوان «الأسود والأبيض والأحمر»، اجتمع عشراتٌ من فتية الحي ممن أرادوا الانضمام لساحة التحرير، حيث أغلق

صفان من الحرس بزي أسود مدخل الحي السفلي، مدججين بهراواتٍ ويعتمرون خوذ وإلى جانبهم سيارةُ شرطةٍ تلقي الرعب بنوافذها ذات الشبك. جاؤوا ليتحكموا بمصير من تبقى في عالم الأحياء.

تمكن جمعة ورجب من التعرف على الضابط حسام وهو يقول «شمروا عن سواعدكم» وإلى جانبه مساعده صفوت، وهما شخصان فظان لا يعرفان سوى تكسير الضلوع واللواط بعضا المكانس.

تموج في هذا الحشد الصغير صرخاتُ غضبٍ وأخرى رضوخٍ تتراوح بين الجموع.

قيل أن هناك نفس الحاجز عند كل المنافذ إلى ساحة التحرير، فحكومة اللصوص والكلاب المسعورة قررت إغلاق المعابر إلى مركز القاهرة حتى لا ينضم إليها الجماهير الأكثر بؤساً و يعدون بالملايين والذين ليس بحوزتهم ما يخسروه سوى ربح الموت.

سجناء في مكانهم بين السماء والأرض، لا دروب لهم إلى ينابيع الحياة قد يردون قتلى حين يعوي الجوع بين هذه الحشود التي تُعد بمئات الآلاف إذا ما دام حصارهم لأسابيع وسيبدأ الموت وليمته بالطاعنين بالسن والأطفال المرضى، لترمى جثثهم النحيلة في المقابر حيث بالكاد سيجدون لهم فراغاً يضمهم حتى بعد موتهم، إلا إذا حدثت إحدى المعجزات وتمكنت الحشود من بقر بطون السجانين الواحد تلو الآخر.

يمضي اليوم الأول وكأن شيئاً لم يكن. تلقي الحياة ببضعة أشعة أمل وتنتشر طيفاً للسعادة هنا وهناك، أدوارٌ يمثلها بعض الممثلين البارعين في الأزقة والمقاهي وبعض المحال التجارية الصغيرة.

ها هو عزمي يجهز دجاجة لإحدى زبائنه التي يبدو الفرح جلياً يلوح تحت خمارها الأسود بالإجازة التي حصل عليها ابنها المجند، فها هي تُسارع لشراء الدجاج لتحضر له طبقه المفضل «الملوخية».

صرخ عزمي عندما رأى جمعة ورجب يمران وأوماً لهما بالعودة:

- يا قشطاط! لا أدري ماذا تفعلون في هذه الأثناء، ولكن إن كان أحدٌ منكما يبحث عن مكانٍ جيدٍ حيث يحصل على عملٍ ثابتٍ يمنحه احترام الآخرين بمردودٍ خمسٍ ليراتٍ باليوم، الله يبارك، فليقصد سمير جامع الريش فهو يريدُ صبياً يحل محل ياسين.

سأل جمعة: وهل غادر ياسين؟

- التحق هذا الغائب بالمظاهرة أمس واعداً بالعودة في مساء اليوم ذاته، انتظره سمير طيلة المساء ونهار اليوم التالي إلا أنه لم يأت. قرر عندئذٍ سمير أن يطرده وخاصة أنه لطالما عانى من بعض سلوكياته التي ليس بوسعي ذكرها أمام هذه السيدة الموقرة. على كل حال، لقد اتصل بي وسألني أن أرسل إليه صبياً على محمل السرعة.

- وكيف سيمكننا عبور الحاجز الذي تفرضه الشرطة؟

- أعطى سمير لحسام عشر ليرات، طبعاً لم يكن الوحيد فكل من يريد العبور يعطي عشر ليرات للمساعد. إذًا، ما عليك سوى حمل كيس الريش فيفهم المساعد ويسمح لك بالعبور.

- سأل رجب: هل بوسعنا حمله معاً؟

- كلا، يا ابن الحمار! قلت لك سمير بحاجة لصبٍ واحد فقط، كما أنه لم يعط للمساعد سوى عشر ليرات. إما جمعة أو أنت.

- قال جمعة: سنأخذ وقتاً لنقرر.

ابتعد الصبيان عن المتجر ذي الرائحة النتنة، ابتعدا عن الجامع لئلا يمرا بأحذيتهم المسروقة وغاروا في متاهة الأزقة التي تعجُّ بالأطفال ذوي الثياب البالية والباعة المتجولين، تلك الأزقة حيث تنبح الكلاب المسعورة ويطنُ الذباب الشره.

تنوء الأكواخ الطينية، مرهقةً متماهيةً مع الفراغ، بعيداً عن تلك الأبنية التي يكسوها القرميد والتي تتوالى الواحدة تلو الأخرى دون كللٍ أو ملل. بين ما يلوح من بعيد وما يبتلعه الأفق، هناك حيث تبدو دار السلام

كمدينة حاملة بين السماء والأرض. مدينة من كوابيس تحلق في الفضاء بجناح الوقت على بساط طائر من الأوساخ. لطالما تعلقت روح جمعة ورجب بهذه المدينة وما لاحظا قط أنها تسبح في الفضاء، فهما دائماً متيقظان كحيوان مطارد يلقي عليهما أي تفصيل جديد ظلاً ثقيلاً من الدهشة والضيق يتخلله شعاع من سعادة عابرة.

يرتاد الناس هنا قهوة أيمن ويظليون الجلوس على تلك الكراسي البالية البلاستيكية، فهي القهوة الأقل غلاءً والأكثر قرفاً في المدينة.

كثيراً ما افترشا أرضها واحتميا بسقفها عند هبوط الليل في تلك الأيام الجميلة التي عملا فيها كبائعي محارم وجامعي لعب الكرتون.

قصد الآن رجب وجمعة قهوة أيمن لرشف الشاي وليتشاركا على «نارجيلة» بنكهة التفاح، قهوة لا تتجاوز خمسة عشر متر مكعب، وضع فوق البراد الصدي كبلأ هوائياً متصلاً بتلفاز قديم من البلاستيك أحمر اللون يتكى على رف معلق بالسقف.

عادةً ما يحضر أيمن الشاي بيدٍ ويغير قنوات التلفاز بيده الأخرى ليتوقف عند أفلام العبادة التي لم يسأم منها أو عند أحد «الكليات» المثيرة، يتوقف بشكل خاص عند مباريات كرة القدم التي تلفت أنظار رواده العشرة المتكسرين على طاولات القهوة.

ليلة أمس واليوم أيضاً، توافد الناس بالعشرات بمختلف الأعمار لينضموا لزيائته العشرة، وقفوا بأنظار مندهشة ورؤوس مرتفعة نحو التلفاز الأحمر الذي لا ينفك يبث صوراً للمظاهرات التي يشهدها مركز المدينة.

يتصاعد الدخان الأسود من الإطارات المشتعلة و تحلق اللافتات فوق رؤوس المتظاهرين تتدد بحشود شرطة مكافحة الشغب. تتهاوى مئات العصي على حشد من الناس المنهارين وتبعثر خرطوم المياه حشوداً أخرى على طول الرصيف.

موجٌ من شعب القاهرة يذهب ويعود، شدوا عزميتهم لمواجهة الضواري وسلاحهم العتيد، ها هم يحتمون بالدرع من حجارة الشعب الملتهبة حقداً. هزؤوا من الخوف الذي ربض طويلاً في قلوبهم، إنهم يتحدون الضرب والسجن لا بل يجابهون الموت هازئين به فلن يعودوا مطأطي الرؤوس مدفونين في هذه الأحياء حيث يخبو الأمل، لن يغادروا ساحة القتال. بدا ذلك جلياً في الصور والعبارات التي أذهلت جمعة وأوقفت جريان الدم في وجوه الزبائن فسرت في أجسادهم رعشة متعة: دقت طبول الحرب...

بينه هو Serious Sam و القبائل المتوحشة الدموية التي تغزو الكرة الأرضية قادمةً من كوكب «مانتال» وبالتحديد في مصر التي كابدت حوالي عام 2200، حرباً سابقةً في المدن الحديثة الخاوية من السكان بأبنية مثقوبة بالرصاص دُمّر بعضها. تلتوي نباتات وادي النيل الكثيفة ميتة كأشباح المعابد القديمة بقاعاتها ذات الأعمدة حيث تتتالي كتائب الجنود بزّي أسودٍ موحد. أما التماثيل الفرعونية الضخمة والمسلات فتحرض على التدمير للتخلص من «سيران الثور الكردياني» الذي يأتي من الجهة الخلفية، يهاجم في كل الاتجاهات، لا بد أن يُلغى مهما فعل.

هدف ناتان كان القتل لئلا يُقتل ولحماية النوع البشري، دون أن يقدم أي تنازلات ولديه عدة اختيارات: بندقية، هجوم ليزري، قنبلة، مسدس نصف أوتوماتيكي. كما لديه راجمة صواريخ ومدفع محمول حتى هراوات. بوسعه أن يستخدم أي سلاح يريد لقتل الوحوش الكاميكاز الذين لا رؤوس لهم يصرخون بأصوات مرعبة وأياديهم عبارة عن قنابل. إنهم عمالقة ذوو عين واحدة. علاجيمٌ ضخمة وعناكب وعقارب وأحصنة تنفجر جميعها تحت رصاصاته وضرباته.

أغلق باب غرفته وانعزل عن العالم الخارجي وصمّ أذنيه بسماعات تهمس بأذنه، أطفأ الضوء في غرفته فما استطاع النور الخجول للحاسب أن

يقارع الليل وعمته، واستسلم لحرارة الحماس التي سرت في جسده مستمتعاً بالاضطراب الذي نفثه الابتهاج في ذهنه.

هُزِمَ في أول لعبة له اثنتان وخمسون مرة. لعله ينجح في المرات القادمة لكن سحر هذا البلد سلب لبّه، صحيح أنها صورٌ حديثةٌ لكنها مزيجٌ رائعٌ لأطلال الماضي مع مرحلةٍ خامدةٍ لحياةٍ راحلةٍ ورواسب الغد الآتي الخيالي ملطخةً بآثار هائلةٍ لكارثةٍ قد مرت من هنا. كما أن عجائب وروعة هذه الكاتدرائيات القديمة قد استحوذت على عقله، بأسواقها القديمة المهجورة بعد أن هُدمت أبنيتها وثقبت بالرصاص، ما إن ألقى نظرةً على هذه المصر الخيالية حتى شرد بذهنه تاركاً نفسه يُصرع مهزوماً.

لم يغير والده عاداته ها هو يطرق على باب غرفته كما يطرق الموت باب الروح، فما كان من ناتان سوى الإذعان للحقيقة والسماح له بالدخول ليقول مبالغاً كالعادة:

- ها قد مرت نصف ساعة وأنا أناديك لتناول طعام العشاء.
أنساه الأدرنالين المتصعب في جسده كل ما حوله حتى الجوع الذي قرع معدته منذ ساعة تقريباً. أدار والده النور واقترب منه مسدّ كتفيه بلطف شديد، فلفتت أنظاره صورة الطريق ذي الأدرج في أحد الأسواق القديمة لمدينةٍ مصريةٍ خلّابة، حيث تشقق طلاء المنازل جرأً الارتطام الشديد وأغلقت المتاجر ذات اللافتات مكتوبة بالعربية وعُلقت سلالٌ من القصب وكرسِيٌّ وسلمٌ مكسوران مصنوعان من النباتات. تحت أحد الأبنية ذي القناطر لآح وحشٌ بدينٌ تسيل منه الدماء لا رأس له أو بالأحرى رأسه منغرس بين عضلات الكتف والظهر وذراعاها قاذفتا صواريخ أطلقتا للتو قذيفةً بذيل متموج من اللهب.

قال والده معلقاً على الصورة:- لو لم يكن هذا السمين الغبي في الوسط لبقيت صورةً خلّابةً.

كان والده يحظى بحنكةٍ في التوفيق بين الأمور تجعل من كلامه

وحتى تأنيبه غير قابل للجدال بل وسَلَسَ وخاصة عندما يرفقه بحركاته الحنونة وابتساماته الودودة.

تابع قائلاً: «أفضل يا عزيزي ناتان ألا تهدر الكثير من الوقت في ألعاب الأطفال هذه، صحيح إننا جميعنا أطفال خلف مظاهر خدّاعة فليس في هذا العالم سوى الأطفال ربما ضعفاء أو ربما قساة لا يهم، المهم أننا نحب اللعب بهذه الألعاب، حتى أنا أمضي وقتاً لا بأس به وأنا أتسلى بها ولكن ليس هذا على حساب العمل، يفضل يا صغيري في مثل هذه الساعة أن تغذي عقلك الصغير الذي أعشق».

مرراً أنامله في خصلات شعره وتابع:

«أنت تلميذٌ في المدرسة وعليك الاهتمام باللغة الألمانية والرياضيات

على سبيل المثال ...»

لم يكن والده ليرمي كلماته على سبيل المثال، إنه يعني ما يقول فظالما اعتبر ناتان هاتين المادتين طلاسماً يصعب فك رموزها. المشكلة أن كلمات والده تحصد الريح فناتان لم يعد يصغي إنه يسمع نغمة صوته الوقور الناعم الذي كثيراً ما غفا بشذاه هارياً لأحضان النوم من حزنٍ جثم ثقيلاً على صدره وحداد لا سبيل لسلوانه بعد أن خطف الموت أمه فكان ظمناً لوجودها ولكلماتها ولأنفاسها ومداعباتها، هو من دونها سيكابد زفرات الحزن حتى تخنقه الدموع وترديه قتيلاً في فراشه.

منذ ذلك الوقت، ما انفك والده عن مواساته والبقاء إلى جانبه ليداعبه ويشدو له بصوتٍ رخمٍ. يحتدُّ بين الفينة والأخرى ليعلّل مبالغته بالاهتمام به، لكن الظمأ اللاذع الذي يتغلغل في نفس ناتان غير فيه الكثير دون أن يلحظ.

هكذا ترعرع ناتان ثملاً بنورٍ رقيقٍ معطرٍ قطفه من الواقع، ما أحب الاقتراب من الحقيقة فاكتفى بهذه الواحة التي تواسيه لكنها ما أخدمت قط سعير ظمأه.

جلسوا إلى المائدة كالمعتاد جنباً إلى جنب، أمامهما النافذة المطلّة على الحديقة ولويز تجلس إلى يسارهما كما جلسن من سبقنهما على طرف المائدة قرب المطبخ والأطباق، ما زال الحساء ساخناً .
ما إن شرع بتناول طعامه حتى رنَّ جواله، إنها رسالةٌ من «راف» كان يُفضل ألا يستقبلها ولا بدَّ أن راف تردد قبل إرسالها: « بوسعي أن أفعل ما هو أفضل».

جملةٌ صغيرةٌ لكنها استحضرت المحاولة اليائسة لذلك اليوم والتي يحبذ ناتان نسيانها . جملةٌ غامضةٌ فهل هي سؤال، لماذا لم يضع اسم استفهام، سؤال أم لا، لا خيار لناتان سوى أن يجيبه «لا» وليكن لطيفاً بعض الشيء كتب «لا يا راف...»، ثم أغلق جواله وانضم إلى عائلته الصغيرة ليضجره الحديث الذي يدور بين والده ولويز حول المطبخ والطبخ، عن التبيد المناسب مع الأرضي شوكي والطريقة الأمثل لطهي البروكولي وضرورة إضافة الكريمة للفت. فشاح بأفكاره وقال في سرّه: إنني لم ألاحظ اختلافاً في سلوك راف فوراً، وربما لم انتبه جيداً، لم أنتبه أن راف كان خلفي أثناء الحلم الهندي وسندني لئلا أقع أرضاً بل واتكأ عليّ طويلاً وازعاً ذقنه على رأسي في شعري قبل أن يمددني على العشب. صورت جوستين هذا وعرضته لي.

لم يعد يخفى على أحد منذ شهر تقريباً ميول راف ولكن ما رآه أحدٌ مع صبي. أنبَّ ناتان نفسه أن استجاب ذاك اليوم لدعوته وتساءل ترى هل كانت المرة الأولى بالنسبة لراف.

فجأةً طرحت لوييز عليه سؤالاً مبددةً أفكاره:

- ألم يعجبك الحساء؟

قال ناتان كاذباً: - بلى بلى، إنه لذيذ .

لم يكن ناتان يأكل سوى الجهة البيضاء من الفروج ويقشّر قطع الكوسا والبادنجان ويرشف الماء بعد كل لقمة، ثم أردف قائلاً:

- كأنك أضفت كميةً زائدة من الزنجبيل؟

- ليس بوسعي إضافة الصويا والكزبرة فاضطرت لزيادة النكهات.
كان ناتان يعاني من حساسية من الصويا والكزبرة وأيضاً من الكيوي واللوز والجوز وسرطان البحر، وأحياناً من الغبار ومن ملامسة بعض المواد.

خشي أن عليه إضافة هذا الشيء الرهيب ذو الزغب إلى القائمة بعد أن حرق الزنجبيل لسانه وحنكه وشعر أن شفاهه قد تضخمت وراوده شعوراً بالاختناق، فحطّ منديله وشرب كأس الماء وجلس ينتظر طبق الحلويات.

في اليوم التالي، جلس الثلاثة إلى المائدة بنفس الأماكن لينثر الصباح الباكر عليهم ضياءه الأزرق الرمادي تشدو معه عصافير الصباح، يعبق المكان برائحة القهوة مع التوست التي تحضرها لويز.

لم ينم ناتان بشكل جيد هذه الليلة فقد أمضى ساعات أمام Serious Sam3 بعد أن قام بكتابة وظيفة العلوم الطبيعية بلا رغبة، وبملا لا حدود له يترافق مع الطحالب وتقسيمها حسب مادة اليخضور.

كان يسيراً على الأب أن يلحظ ذلك فسأله:

- لم تتم جيداً الليلة إلى أي ساعة سهرت وأنت تلعب؟

- أجاب ناتان فاغراً فاهه: - لا أدري، ربما حتى منتصف الليل...

- قُل حتى الثانية صباحاً، لقد سمعت تدفق طاردة المياه حوالي

الثانية صباحاً، وأنا أيضاً لم أنم جيداً فاستغلّيت الوقت للتفكير بأمري ما.. ماذا لو ذهبنا إلى مصر، خلال عطلة عيد جميع القديسين؟ فالحقيقة ليست كما في مجزرتك الافتراضية ولكن في الواقع المصري في أسواقها وأهراماتها ورحلات في النيل العظيم والكرنك وأبو سمبل...

استغرب ناتان من طرح والده وقال:

- كلا، لقد تحدثنا عن النرويج حيث الأزقة البحرية والحيثان

ونزهاتٍ على الدراجات برفقة مانون. لن يسمح لها والداها بالذهاب إلى مصر.

اعتمد على هذا الدليل كأسرع حجة ضد هذه الفكرة الخرقاء. لن يتجرأ والده أن يحرمه من مانون، في الحقيقة لن تزعه أبداً رحلةً بثمانية أيام دونها لكنه يخشى من مأسٍ أخرى أشدُّ ألماً، إنه يخشى القذارة والروائح والبؤس ما يرافق البلدان الفقيرة، بالإضافة للحشرات الغريبة والحيوانات الطليقة ولن ينسى الحرَّ الشديد والمطبخ ذا البهار.

- لا تقلق بشأن أهل مانون فلدي حجةٌ قد تفهمهم، فالرحلة إلى مصر أقل كلفةً بمرتين من رحلةٍ إلى النرويج وهذا يناسبني تماماً، والطقس خلّاب في مصر مع نهاية تشرين الأول كما أن النرويج...

حاول ناتان أن يدحض حجج والده الواحدة تلو الأخرى، ولكن لم تتمكن لا الثورة ولا الاعتصام ولا الهياج الشعبي من ثني عزمته فهذا سيجعل المواقع السياحية شاغرةً مما يتيح لهم الفرصة الأفضل للاستمتاع بها.

كان الأمر سيّان بالنسبة للوزير فل كلا البلدين إيجابياته وسلبياته لم يتوصلوا لقرار يجمعهم، للبت بالأمر اتفقوا أن يجروا قرعةً كالعادة فأخرج والده قطعةً نقديةً: «الوجه مصر والوجه الآخر النرويج، موافقون...». استدارت القطعة على الطاولة...

وسقطت على وجهها إذاً جمعة من سيحمل كيس الريش. اليأس الذي رسم على وجه رجب كان مثيراً للشفقة. بالنسبة لجمعة فإن يفترق عن أفضل صديق له من يتقاسم كل الأتراح والأفراح خيرٌ من أن يبقى محتجزاً في مدينة محاصرة، وخاصةً أنه سيحضر حدثاً رائعاً. تتم رجب: سأنتظرك تحت الجسر، اذهب برعاية الله.

ثم شاح بناظريه عن جمعة الذي ترك له القطعة النقدية وغادر سالكاً الطريق الذي يوصله إلى محل عزمي في الفراغ بين حيي دار السلام.

يزن كيس الريش الذي مازال مبللاً طن تقريباً، ثقل هائل فوق كتفيه وهو ينزل الأدرج والذباب يحوم فوق رأسه شرهاً برائحة ننته تعج بالمكان لدرجة أن القائد فسح له الطريق دون أن يفتشه وهو يقول:

- امض يا جرد المزابل، ولكن إن علمت أنك لم تعد مساءً فمن الأفضل ألا تعود أبداً.

كان جمعة ينوي العودة مساءً لا رغبةً بجولة أخرى مع سمير في متاجر الدواجن، بل لأنه عرف السبيل للهرب نحو ساحة التحرير إذا ما أفلت من شرطة مكافحة الشغب وخاصة الشرطة التابعة للحزب الرئاسي، ربما يعود مع ياسين فيروي لرجب كل ما جرى.

عبر تحت الجسر الذي يجمع خطوط المترو، ثم مرّ بين متاجر الجزائر في السوق الصغير حيث طغت رائحة السمك المشوي على روائح النفايات الفاسدة والرائحة المقززة للريش المثيرة للغثيان.

حاذى الجدار الذي يفصله عن الطرقات حتى وصل إلى الكوة التي يعبرها ليلاً الكلاب والهاربون وبائعو العشب وكذلك بعض المختلين.

طرح الكيس أرضاً على الجهة الأخرى من الجدار، أخيراً تخلّص من هذا الثقل لكنه شعر أن رداءه مبللٌ ويعج بالرائحة المقززة.

استنشق هواءً نقياً ثم اتجه نحو محطة المترو في الشارع المكتظ ببائعي الألبسة والخردة الصينية المرمية على الأرض بشكل مباشر. روى ظمأه من صنوبر شعبي بمائه السلسبيل.

شيء ما قد تغير، هناك أعلامٌ ترفرف من بعيد وجوقةٌ من الأصوات تتحدى الصمت، إنها تعلق أكثر فأكثر كلما اقترب نحو المترو.

تناهت لمسامعه شعارات: ارحل يا مبارك! الشعب يريد إسقاط النظام! خبز حرية كرامة!

هذه الكلمات التي تصدح بها الحناجر تتحدى العالم بأسره.

تعبّر بعد محطة مترو دار السلام حدود البؤس إلى الرفاهية إلى

كورنيش النيل. إذ ترتقي الأدراج وتمراً أمام شباك التذاكر وبوابات دواره تدور في الهواء.

طالما فضل جمعة التعلق بشاحنة أو بباص على الكورنيش لئلا يشتري بطاقةً ولكن اليوم كان الظرف استثنائياً، فالبوابات الدوّارة تدور في الفراغ والجميع يعبرون دون أن يدفعوا. أخيراً تخطى جمعة عقبةً منيعاً لطالما بدت له محفوفةً بالخطر بوجود الحراس الذين لا يترددون عن ارتكاب جريمة فلا يُنزل بهم عقابٌ. قال في نفسه أن هذه هي السرقة الثالثة التي اقترفها اليوم وبالحقيقة الأمور لم تبدُ كما كانت عليه ففعل الحرية الجديدة ستهديه فخامة الصعود بالمترو بل وأكثر من ذلك فخامة أحياء القاهرة الخلّابة التي تلقي بمهابتها على من حولها. سيرى مدينة السياح والفنادق الفخمة، سيقتمح المطاعم العائمة و«Kentucky» و«McDonald's» ومقاهي «الفييس بوك» وكذلك الأبنية ذات الرخام.

منحته الحرب الحق باقتحامها جميعها وكسرها لا بل بإضرام النار فيها لو أبدت مقاومة في وجهه. استقل القطار القادم من علوان مع جوقة المتظاهرين بأعلامهم ولافتاتهم التي عجز عن فك حروفها، طغت شعارات الغضب التي تصدح بها الحناجر على صخب القطار ولمت بصداها آذان العصر الذي ترفعه مكبرات المآذن على طول الطريق، ما عاد المترو سوى صرخةً تفرز في قلب المدينة. قال جمعة في نفسه: ماذا لو صرخت كل القطارات والحافلات والتوك التوك وصدحت حناجر ركابها بالشعارات نفسها؟ ماذا بوسع قائد اللصوص والمجرمين أن يفعل؟ لا بد أنه سيلوذ بالفرار مثل سلفه «بن علي» بطائرته الخاصة؟ ضم صوته إلى صوتهم وبدء يردد الشعارات التي عبق فيها المكان، يجول بناظره بين هذا الحشد الهائل يبحث عن وجه يعرفه، عن ابتسامة ترشده في هذه المدينة المجهولة، عن يد تمسك بذراعه فيصدحاً معاً بالشعارات لمواجهة الظلم، لم يتعرف على أي من الوجوه فجميعهم من الحي السفلي لدار السلام، عمال وموظفون

وطلابٌ وعاطلون عن العمل يعيشون على حساب أهاليهم ويشدهم بريق الموضة والهواتف النقالة، جميعهم نظيفون وأنيقون، لا يرتدي أحدٌ منهم كنزة ذات قلنسوة قذرة ورائحة نتنة.

يتردد بما يفعل هل ينزع هذه الكنزة الحمراء ويلفها حول خصره متفاخراً بصدرٍ عارٍ أم يظلُّ محرّجاً من الروائح العفنة للدواجن الميتة التي تفوحٌ منه؟

عادةً ما ترافق هذه الرائحة ياسين الظريف ذي الشعر الأشقر، لم يكن يمانع أي شخص يريده حتى لقبوه «الكراج» حيث لكل سيارة مكان. تمنى جمعة أن يلتقي بياسين الصغير المخنث جامع الريش، تساءل في سره كيف له أن يواجه الحراس الشرسين ذوي الزي الأسود، ما كان عليه أن يتأثر بغيره إذ لطالما رغب بأن يدخل الفرخ في قلوب الآخرين فما قال «كلا» لأحد أبداً.

رغب جمعة جداً بالعثور عليه رغم أن شيئاً ما في داخله يقول له أن مصيبةً ما حلت بصديقه لعله وقع ضحيةً للمدافعين عن الحزب لهم وليمةً فظةً أو لعل نجمه أفل إلى الأبد. هذا الصبي من الزقاق نفسه الذي عرفه منذ نعومة أظفاره فهما بنفس العمر تقريباً، كم سبرا المزابل العامة ليفتشوا عن بقايا طعامٍ يقتاتون به! كم وجدا نفسيهما محتجزين في سجن الشرطة من دون سبب فقط بسبب شكلهما! كم انهالوا عليهما بالضرب لأن القانون لا يسمح لأحد أن يعيش بالأزقة، ولأنهما دون أهلٍ ولا أوراق ثبوتية ولا سند يلجئون إليه هرباً من الظلم!

تبنى شحاذٌ ضريراً طاعنٌ بالسن ياسين عندما أصبح بعمر الخامسة أو السادسة، كان يدعى فاروق فهو مثل ملوك الأيام الخوالي يعتمر طربوشاً محذباً من أحد الجهات وقد غيرت لونه الشمس، لكنه لا يفارقه أبداً.

اختار فاروق لنفسه مكاناً في أحد أزقة الحي السفلي حيث يتربع على طينٍ مجبولٍ على الأرض ويبدأ بتلاوة القرآن الكريم من الصباح

حتى المساء مما فرض احترامه على الكثير من المارة الذين يمنحوه بعض المال.

قدّم فاروق الطعام والمأوى لياسين لعامٍ ونيّف تقريباً إلى أن افتقده الموت، لكنّه بقي حياً في ذاكرة ياسين وعلمه الكرم، فهو الرجل الذي أعطى كل ما يملك ليرد عن هذا اليتيم الصغير الجوع حتى أصبح الكرم الطائي إحدى سمات ياسين بالإضافة للرائحة النتنة التي تشبّع بها، رائحة الريش المبتل الذي يجمعه خدمةً لسمير.

كان ياسين يُطعم ما يقتات به إذا ما لاقى جائعاً أمامه كما كان يوزع ما يُقدم له من أعطيات. كرمه هذا تضافر من الرائحة النتنة التي تميزه فجرت عليه سحابةً من السخرية لتُلا يهدي عطره لأحد وأنه الدجاجة المضيفة بل العجّز المضيف، مما يُضحك ياسين كثيراً فهو على يقين أنه سيظلّ محبوباً ولو تحوّل إلى دجاجة.

ينزل ركاب القطارات في محطة ناصر بعد أن أغلقت الشرطة محطة السادات التابعة لساحة التحرير. ركدَ الغاز المسيل للدموع في أروقة المحطة مما جعل جمعة يبكي فالتجأ للخارج حيث يمكنه الاستشاق بشكل أفضل رغم الحشود الصارخة المتكدسة عند زاوية شارع 26 تموز وشارع رمسيس.

صفوفٌ من شرطة مكافحة الشغب سدّت الطريق إلى التحرير أمام هذه الحشود التي لم تتردد باحتقارهم ملوحين بلافتاتٍ وراياتٍ صغيرة رغم أنوفهم.

أما باقي الاتجاهات فالطريق إليها مفتوح، نحو محطة رمسيس في الشمال والكورنيش غرباً يعبرون حي «البلاق» بأزفته القروية المحاطة بالأبراج إلى قصر العدل شرقاً. كل هذه المساحة كانت سوداء من كثرة الناس الثائرة بشعاراتٍ تصمُّ الأذان. دُهش جمعة بكثرة الفتيات سواء كنَّ محجباتٍ أم سفور، إذ خلعن فجأة رداء الحشمة المفروض عليهن وهن هن

يتحركنَّ بحماسٍ بين الفتیان. ربما يتسنى له الاقترابُ منهن ومخاطبتهن والابتسام لهن، لعل بوسعه أن يوقعهن بشباكه، لكنه لم يجرؤ.

ترى هل تغير الثورة حياة الفتية المساكين الذي يُحرمون من المتعة مع النساء حتى يقاربون الثلاثين من العمر؟ هل سستيح له مثلاً أن يضاجع فتاةً ما حلم قط بلمسها، إحدى المومسات القذرات اللواتي يهين أنفسهن مقابل حفنة من المال في أحد الأكواخ القذرة ولكن مع فتاةٍ يضاها جمالها جمال نعيمةً بائعة الأحمذية أم فطمة أخت عزيز عامل الرصاص. ربما يكن نساءً مومسات عازبات نعم ولكنهن شاباتٍ وجميلاتٍ ونظيفاتٍ وبالمجان كما في الجنة.

تأملُ جمعة هذه الجموع الغفيرة وقال في سره: لن يتمكن أحدٌ من قهر عشرات آلاف الرجال والنساء والأطفال الغاضبين، لا بدَّ أنهم سيظفرون بالنصر، إلا إذا رمتهم الدبابات بالمدافع أو فجرتهم الهيلوكبترات برجمات الصواريخ، ستتهدد مصر غداً مصر برمتها وترتفع الشعارات والأعلام ذاتها.

حتى لو انتشل الموت كل من تراهم عيناه في هذا الشارع فلا بد أن يحل محلهم ملايين غيرهم يتحلون بالقوة والشجاعة نفسها والغضب عينه. إنه على ثقة بأنهم قد انتصروا، سرت رعشة نصر في جسده وغمرته موجةً من الفرح جعلته يتمايل راقصاً غير آبه برهط الكلاب ذوي الخوذ، أولئك الفظين ذوي النظرات الفارغة وهم غارقون بنظامهم والحق الذي يضمروه لدرجة أن لا تأخذك بهم الشفقة، فهم وحوشٌ بائسون جندهم الشر لأمره وما وجدوا سبيلاً للعيش بعيداً عنه.

أخذته نشوة الحرية فنزع قميصه، ما لم يجرؤ على فعله هناك في المترو، واقترب بصدرٍ عارٍ من أولئك المساكين أسيري الأوامر الصادرة والأسلحة الفتاكة والدروع الواقية المرعبة التي حاولوا أن يواجهوا بها شعباً نائراً منتفضاً.

اقترب منهم بصدرة العاري والتحدي يرفرف فوق رأسه كرايةٍ تنتشر في الفضاء الحروف التي كُتبت عليها، غير آبه بما قد يثير من رغبةٍ بالعنف. في هذه اللحظة أفلتت الكلاب، ربما بما أثارته حريرته من غيظ أم بسبب الحجارة التي بدأت تنهال على دروعهم؟

ركض جمعة بسرعة هائلةٍ فما تمكنوا من اللحاق به بيد أنه ميّز بوضوحٍ وسط هذه الجلبة والصراخ أصواتاً يعرفها حق المعرفة صدئاً لضربات تنهال بالمطرقة على جسد أو رأس. ما إن توقف هذا الضجيج المصمّ حتى عاد أدراجه ليرى عدداً من الفرائس جرحى تسيل دمائهم لعلمهم قد لفظوا أنفاسهم الأخيرة فينقض عليهم المتوحشون ذوو الزبي الأسود ويسحلوهم إلى سيارات الشرطة.

أعدت الشرطة تشكيل صفوفها من جديد وبدؤوا بإطلاق القنابل المسيلة للدموع لأن حشود المتظاهرين ما تبعثروا بعد احتدام العنف لا بل استشاط غضبهم.

غابت الحشود في الغيوم الدخانية وتدافعوا لإخلاء التقاطع نحو الاتجاهات الثلاثة المتاحة، والنار تلتهب في أعينهم وحلوقهم. ركض جمعة مع المجموعة التي سلكت اتجاه شارع 26 حزيران إلى حي البلاق ثم الكورنيش. تسلل بين السيارات المصطفة تحت الجسر وقفز فوق الشوارع المزفتة، محلّقاً بحذاءٍ مريحٍ ينتعله ورايته ما زالت ترفرف عالياً وحنجرتة تصدح بما يردد الحشد من شعارات تلتهب تحت سعيير الشمس وربما لن تغيب حتى تحت جناح الليل. لن يتركهم جمعة إلا إذا ظهر ياسين. كم يأمل برؤيته ينبثق بين الجموع! ها هو يُلوح بعلمه الأحمر دون توقف علّه يلاقيه فيثأراً معاً من ذوي الرداء الأسود.

اجتاح مئاتٌ من المتظاهرين الكورنيش محاولَةً منهم للوصول إلى ميدان التحرير حيث وجدوا أنفسهم محاصرين. اقتحمت إحدى المجموعات مبنى وزارة الخارجية وانتزعوا الشبك من المبنى الذي بدا مهجوراً.

جلس جمعة على الحاجز المطل على نهر النيل وتفحص وجوه المتظاهرين الذين شكلوا حلقةً دائريةً كبيرةً حيث يأتي البعض ويغادر الآخر بوجوه ملثمة وبأيديهم حجارةً قويةً، بحث في وجوههم عن ياسين أملاً بلقائه!

جلس بجواره أحد شبان «الفييس بوك» الذي ما فارقت عيناه شاشة الجوال، يستقبل رسائله ويحجب بسرعةٍ عليها وهو يعزف بمهارة على أزرار الجوال.

كم حسده على جواله وعلى براعته في القراءة والكتابة!
رن جواله فأجاب سائلاً: «أين أنت؟» ثم نهض ونظر باتجاه الشمال وقال «إنني لا أراك» وتابع: «أنا أقف أمام الوزارة تماماً، متكئاً على الحاجز».

بعد برهة، أقبل فتى آخر لاهثاً مبتسماً وبيده جواله، يرتدي كنزة سوداء حسب صيحات الموضة وقد رُسم عليها وجه إحدى النجمات الأوروبيات لكن جمعة لم يتعرف عليها، ربط حول خصره قميصاً أزرق اللون.

قال جمعة في سرّة: يبدو كل شيء بالنسبة لهم بسيطاً. هذا الجوال يفعل العجائب لو كان مع ياسين جوالاً لعثر عليه «بشحمه ولحمه» لا طيفاً فقط يسأله:

- أين أنت؟.....

أجاب نيكولا لاهثاً: - إنني في المنزل، استمع ل«Skrillex» أعلم أنه سخيف لكنه يشجعني على القيام ببعض الحركات وأنا فعلاً بحاجة للحركة.

- إذا هيا تحرك إلى الحديقة العامة.

لم يكن نيكولا يرغب بالمجيء إلى الحديقة فهو ينتظر «إيمان»

ليجريان معاً بحثاً في الجغرافيا حول التحولات الطارئة على محيط المدن الكبرى في البلدان النامية، فليس لديه أدنى فكرة حول هذا الموضوع وما وجد ببحثه على «Google» أي معلومة لذلك فهو يعتمد تماماً على إيمان، كما أنهما قد يعبران معاً إلى أشياء أخرى.

لعل في العبور إلى أشياء أخرى إلى عالمٍ آخر أكثر كثافةً لحدود المكان والزمان المترامية ليضاهي شقاء العيش حيث يدفع الملل دوماً لاختراعات جديدة بالأشياء والمشاعر مثل الحلم الهندي الذي يمارسه في إحدى زوايا الحدائق العامة برفقة نيكولا.

لو تخيل ناتان اللحظة أن يجد نفسه وحيداً في الحديقة العامة دون صديقه المفضل لما كان ليأتي أبداً، إلا أنها المرة الأولى التي يتركه فيها من أجل فتاة.

لم يعد نيكولا ذاك الفتى الصغير ممتلئ الوجه الذي يخفي خلف ستار من الظرافة وحسن المزاج ما يسببه له تأخر النمو من جراح، إذا طراً عليه تحولٌ كبيرٌ بعد العطلة مما دفع الجميع لتبادل المزاج يوم العودة إلى المدرسة عن نيكولا الذي نما وأصبح بالغاً الآن.

يعبر ناتان جسر الذكريات ليلاقي الزمان الماضي حيث كان هو ونيكولا يمثلان أدواراً: هو «نادال» ونيكولا «فيدير» لينتابه الشعور بسخافة هذه الأدوار مهما كانت منطقية، كم أمضوا أوقاتاً في ملعب الأطفال في هذه الحديقة التي ترعرا فيها وسبرا زواياها حتى الصغيرة منها، وخبرا أسرار نباتاتها التي يجهلون أسماءها تماماً.

إنه يوم الأربعاء وها هي أصوات الأطفال تصدح بالمكان ولكن اليوم لم تكن أصواتهم بين هذه الضجة. اقترب ناتان من ملعب الأطفال الذي تحول منذ برهة من الزمن إلى غابةٍ حيث يتسلق عشرات من ماوكلي وتارزان وبالو وباغيرا جذوع الأشجار وسط صخبٍ طفولي ليتجمعوا في كوخٍ جاثمٍ على قمة الشجر ويلوذوا بالفرار من شيريكسان القادم من خلف

الزلاقات التي لها شكل كلب صيد ذهبي اللون. إنهم يرسمون خططاً للدفاع فبعضهم يلوذ بالفرار والبعض يخطط لإيقاع النمر الشرير حياً في شرك فخ يصنعه لينزلوا به كل أنواع العذاب التي يستحقها .

جلس ناتان على الرمل الذي بدا له نظيفاً ليتأمل هؤلاء الأطفال الذين يحلّقون في مملكتهم بعيداً عن الواقع من دون عناء، قال في سره: حقاً إن المرء يعد في عداد الموتى حين يعاني الحرمان من أحلام اليقظة التي تعبر به إلى اللا نهاية إلى عالمٍ آخر مختلف . إنه كمن وقع في براثن شبكة العنكبوت، أسيراً للموت الذي يقترب منه بخطى وثيقة وهو يحاول دون جدوى تجاهل تخبطه كذبابة لاجئاً لحيلٍ سخيصة مأساوية مؤلمة في كثير من الأحيان، حياً كالحب والجنس والمال وآخر ما توصلت إليه الحداثة من بضائع، وكل العلاجات الأخرى غير ناجعة عدا الدين، ذاك الجنون الذي يخدرك في مواجهة هذا الواقع المرضي بحقنةٍ من الأمل الأحمق حول حياةٍ حقيقية في الجنة بعد الموت .

لاحظ أن الأمهات يجدجنه بنظرةٍ مليئةٍ بالشك فأثر الرحيل . يبدو له الوقت المتبقي من بعد الظهر لا نهاية له، ماذا بوسعه أن يفعل، أخذ يوازن المسؤوليات المتاحة له: عادةً ما يلتقي بمانون يوم الأربعاء ولكنه وبعد مرور نصف ساعة يرغب بالمغادرة .

فكر بالمسبح لكن مؤخراً أصابته حساسيةٌ من الكلور . هل يعود إلى المنزل؟ لكن اليوم لويز تقوم بتظيف المنزل وبالتالي ستتهال عليه سلسلة من «لكن» تلقي على كاهله أطناناً من الملل أكثر سوءً من البقاء جالساً على أحد مقاعد الحديقة العامة لمراقبة زوبعة الأوراق الخريفية المتساقطة، فترأى له الموت يحمله هكذا كالهواء إلى الدوار الأخير، إلى النشوة الأخيرة . راودته فكرة الحلم الهندي مع كلمتي الدوار والنشوة، ما مارس قط ذلك وحده، فلا بد من وجود أحدٍ إلى جواره لئلا يسقط أرضاً وليضمن استيقاظه تماماً، إلا أن نيكولا لم يكن هنا وما وجد من يحل محله .

فاستسلم للريح، إنها تجربةٌ مثيرةٌ حقاً فهو الآن لا يضمن سلامته لذلك سيبقى في بداية الملعب، سيتوارى خلف السياج حيث يتوارى عادةً مع نيكولا وبقية اللاعبين. إنها المرة الأولى التي يخنق فيها نفسه وحيداً في العراء صباح يوم أربعاء حيث تعجُّ الحديقة بالأطفال.

بحث خلف السياج عن بقعة عشب فيبعد عنه الأذى إذا ما طُرح أرضاً حين يفقد وعيه، جلس القرفصاء وتحقق أن ما من أحدٍ يقترب نحوه، علق العداد الزمني وفصل شبكة الانترنت من جواله «الذكي».

بدأ بدورانه السريع جداً يتسارع أكثر فأكثر حتى 30 ثانية، نهض بشكلٍ مفاجئ وحبس أنفاسه، رأى وجه والدته في نورٍ مائلٍ للزرقة نثره الفجر على المكان، كانت تجلس على كرسيٍّ من السُّوحر^(*) في منزلهم في «سافيني».

سرت في جسده فرحةٌ عارمةٌ حين تكلمت ليس بسبب معنى الكلمات التي لم يصغ إليها وإنما طربٍ بشذى صوتها الذي تعرف عليه، استعادته غير آبهٍ بالنسيان الذي ابتلعه منذ زمن. حان الآن دوره بالكلام لا بل سالت الجمل من فمه بسيلٍ غير منتهٍ دون كلماتٍ ودون قصدٍ تعنيه.

حوارٌ لا نهاية له عن رغبتها بأن يدخل الحمام. رأى أنه أصبح كبيراً بما فيه الكفاية ليغتسل بمفرده؛ فقالت أنها ستكتفي بغسل شعره «بالشامبو» وفرك ظهره، طالما استمتع بدغدغتها وطالما استسلم لفرحه بها وهي تمسده لتجففه بعد الحمام ولكن للأسف ماء كولونيا 4711 فارغة، فبدأت والدته بالضحك...

فتح عينيه بنور النهار المبهر فشعر بثقل جسده على عشب المرج و ألمٍ في ساقه اليمنى المثنية فمددها رويداً رويداً وبقي جالساً حتى استعاد توازنه وهو يبحث عن جواله ليعرف كم استغرق الحلم الهندي من وقتٍ، لم يتجاوز بالتأكيد خمس ثوانٍ حسب حساباته.

(*) السُّوحر: نوعٌ من الصفصاف تصنع من أغصانه السلال.

إنها المرة الأولى التي يحمله فيها الحلم الهندي لفلمٍ كاملٍ فيها هو رنين ضحكاتها وصدى صوتها يطرق ذاكرته بعنف بكل تفاصيله كما لو أنه مقطع فيديو لطفولته في السادسة يكرره مئات المرات، ولكنه لم يكرره منذ زمنٍ طويلٍ لا بد أن يتحقق من الأمر. نعم سيطرح مساء اليوم السؤال على والده، سيسأله عن الدغدغة وعن ماء كولونيا 4711 التي رأى علبتها بتفاصيلها لكنها لم ترتبط معه بأي ذكرى مع والدته.

ربما سيتمكن من إثبات أن المستوى الأول للحلم الهندي يحرض صوراً طواها النسيان في جعبته بموهبته الفاتنة التي يوجز بفضلها صوراً وأصواتاً ومشاعراً في مشاهد لا تتجاوز ثلاث ثوانٍ في حين أنها تتطلب بالحقيقة ما يزيد عن ثلاث دقائق، كما لو أنه يقول نوعاً من العبارات السحرية مثل «افتح يا سمس» ليدخل إلى مملكةٍ مبهرةٍ من الكنوز الضائعة.

ما كان ناتان يستسيغ طعم الذكريات وليس ممن يبحرون في الزمان الغابر ومع ذلك لو أثبت أن هذا السحر يكشف أسرار الأيام فلن يقاوم رغبته بما يظهره المستوى الثاني من الحلم أي بعد الخنق الذي ينفخه على بساطٍ طائرٍ لا مرساة له في سماءٍ مجهولة.

رغب بمعرفة إذا ما كان المستوى الأول يحمل كلاً من نيكولا وجوستين إلى عالمٍ غريب، أعاد الاتصال لجواله لترده للتو رسالتين الأولى كانت من مانون فهي قلقةٌ من أجله وما الذي أخره عن مواعدهما المضروب في هذه الساعة كما في كل يومٍ أربعا. أما الثانية فكانت من «راف» الذي يرغب برؤيته في مكانٍ ما «في منزلك أو في منزلي مثلاً». فلم يجب ناتان عليهما بل قام بطلب رقم نيكولا الذي أجاب بقليلٍ من الفظاظ إذ لا بد أن إيمان بجانبه: كلا خلال الحلم الهندي لا يراوده سوى شعورٍ بانعدام الجاذبية كما لو أنه يتنفس تحت الماء أما في المرة الأخرى فقد رأى وميضاً ضارياً للزرقة وتناهى لمسامعه كلماتٌ مبهمة. إنه يجد الأمر سخيفاً وصبياني ولن يكرره البتة.

بعد برهة، طلب رقم جوستين التي عزمت هي الأخرى على التوقف عن هذه اللعبة للخطر الذي يحفها، فمازحته بسؤاله إن كان يجري تحقيقاً لجريدة المدرسة ثم قالت أنها ما شعرت سوى بشعورٍ عارمٍ من الرفاهية وأنها ما سمعت ولا رأت شيئاً.

لكل عقلٍ طريقته بالتعاطي مع الأمور، ربما عقله مترعٌ وغنيٌّ يمكنه النهل من ثرواته. حياته الحقيقية هناك على الجانب الآخر لخيال الأشجار المتكئة على السياج ذي العُقد تغطيه تلك السماء الزرقاء وتداعبه رائحة العشب وصرخات الأطفال وهم ينكبون على اللعب حتى يبتعدون عن الواقع ويتخلون عن الحقيقة، صرخات الأطفال تلك التي طالما ألفها.

أخذ الاتجاه الذي يصل به إلى منزل مانون وهو يفكر أنه سيتابع بالحلم وحده فمن الآن وصاعداً لا أحد من أصدقائه يرغب بهذه اللعبة، سيبقى الأمر سراً لن يبوح به لأحدٍ وخاصةً لمانون.

لاح وجهها سعيداً عندما شقت الباب، سحبتة إلى غرفتها وهي تكيله باللوم على تأخيرها وعلى عدم الرد على رسالتها، أرادت ممارسة الحب فوراً فهي جاهزةٌ، لم يكن يغطي جسدها سوى فستانٌ من الكتان أزرق اللون بأزرارٍ بلون حدائق النيل، يفوحٌ منها عبق العطر الذي أهداها إياه بعد الاستحمام. حينها تساءل ماذا تهديه مصر غير هذه الرائحة الفواحة للأزهار القادمة من النيل العظيم، ذاك الشذى الذي يغفو بدلال على جسد مانون الشفاف ليعطر الثلم الدقيق المرسوم على بشرتها بشذى لطيف يشبه المانغا...

ماذا لو ذهب إلى مصر ليرى أزهار النيل حقاً...

تسير مع مجرى النهر حتى تعانق البحر، لطالما حلم جمعة أن يتبع ياقوتات الماء هذه ليرى كيف يسحبهم التيار لأحضانها. هذه الرغبة تتأجج في حر الصيف المرهق فيشجعه على السباحة بين أزهار النيل العظيم أو بالأحرى بالقرب من قاعة الصلاة أو تحت قناةٍ محفورةٍ لبناءٍ مهملاً.

برفقة رجب والكثيرين، يقطع حدود السكة الحديدية والكورنيش ثم يبحثون عن ضفة خالية من القصب ليقتربوا ما أمكن من الماء العذب وينتعشون به. أحياناً عندما لا يكون بحوزته صابونٌ للاغتسال يطلب من غيره بالراح. يسأم في بعض الأحيان ويرغب بتغيير الأفق فيسير نحو الشمال إلى القناة القديمة «سور مجرى العيون» التي كانت تحمل قديماً ماء النهر إلى قلعة صلاح الدين. أسفل القناة هناك رصيفٌ حجريٌّ طاعنٌ بالقدم لكنه مازال يحتفظ بشكله حيث يقف الصبية عليه ويرمون بأنفسهم للغوص منه قبل أن يرتقوا الأدراج التي انهار قسمٌ منها.

يتوافد السباحون الشباب من كل الأحياء المجاورة، من السيدة زينب وحتى من أقباط مارجرجس. وقد يتكدس العشرات على الرصيف ليغتسلوا بالصابون وينظفوا إختهم الصغار ويفرّكو ظهر أحد أصدقائهم وربما ليغسلوا ملابسهم أيضاً.

للأسف فقد هذا الحمام في العراء رونقه وروّاده منذ عدة سنوات لأن شرطة النهر باتت تنقض بفلك ذات محركات على السباحين وعلّقوا بعضاً منهم بالكلابات، تنفيذاً للأوامر، ليكونوا عبرةً للغير، لا خوفاً على هؤلاء الفتية المساكين من الفرق، بل لعلهم يتمنونه، وإنما لإيقاف مشهد البؤس هذا أمام أنظار السياح الذين يتوافدون لتصوير القناة بعد ترميمها.

مازالت ياقوتات الماء تطفو بسلام. في يوم الحرب هذا، وتهتز بموجات خفيفة جداً تذبذبها الرياح وتدنو نحو البحر غير آبهةً بجلبة الكاد يسمعا آتية من الكورنيش وجوقات لآلاف المتظاهرين تصدح بنفس الشعارات.

بعد مرور بضع دقائق، بحث الفتى ذو القميص الأسود والجوال عن مكان له على السياح بجانب صديقه، فأفسح له جمعة مكاناً، جلس الفتى وبعد برهة بدأ يحدجه بنظرةٍ مقرزةٍ ويزدريه من رأسه حتى

أخمص قدميه، فهم جمعة أنه يجول بناظريه بحثاً عن مصدر الرائحة النتنة المنبعثة من سترته التي خلعها منذ قليل، فنهض في الحال وحاذى السياج بحثاً عن مدخل إلى ضفة النهر حيث يجري النيل بسلام كما هو دائماً وكأن شيئاً لم يتغير، غير آبه بالهياج الشعبي الذي لا يبعد عنه سوى مترين.

توجس جمعة خيفةً بأن يبقى كل شيء على حاله على ضفاف النيل مثل ياقوتيات الماء هذه ويبقى الفقراء يجترون بؤسهم ويكابدون ضيق العيش. فكرةً سريعةً ساورته ثم حلقت مع أول نسمة هواءٍ باردةٍ لفحته وهو يدعك سترته في مياه النيل. غمرها بالماء وعصرها عدة مرات حتى حلت الرائحة الترابية التي لا تخلو من الرائحة الواخزة للطين حيث تفرز ساقاه، محل الرائحة النتنة للريش.

لفته صوتٌ يناديه من الكورنيش وهو يرتدي سترته الرطبة، نعم إنه صوت ياسين لقد ميزه رغم الصخب والضوضاء المتضافرة في المكان، يكاد لا يصدق، حقاً، هذا ياسين، إنه يلمح خياله وشعره الفاتح، ها هو يلوّح له. يا الله! هناك لحظاتٌ تفتح بها أبواب السماء فيهبط منها ما يشتهي جمعة بالضبط لا بل كنوزاً غير متوقعة تقلب حياته لأيامٍ عدة، كغطاءٍ مرمي في النفايات في ليلة شتوية قارصة أو طعامٍ سليمٍ مرمي خطأً. أحياناً يرقصُ فرحاً ويصرخُ لبخشييشٍ دسته له سيدة عجوز حمل لها بضائعها. وبعد أن تطول متعته ويرتمي بأحضان هذه الهبة السماوية يقول في سره أن عليه الاعتقاد بوجود رب واحد لهذه الحياة. لتنهال عليه في اليوم التالي مصائب تذكره أن السماء بنهاية المطاف ليست كريمةً إلى هذا الحد.

جاء ياسين إلى ضفة النهر وتعانقا عناقاً طويلاً وفتحها بصوت عالٍ سعداء بلقائهما هنا بين كل هؤلاء «الفييس بوك» الذين لا يعرفون أحداً منهم ثم تعانقا مجدداً. لم يستطع ياسين والظماً ينهش حلقه أن يقاوم مياه

النيل فغمر يده بالماء كما لو أنها فنجانٌ ورشف القليل من مائه رغم علمه بأنها غير صالحة للشرب. ثم بدأ يسردان ما جرى خلال الأمسية الماضية: دورة جمع الريش تبدأ في السابعة مساءً لذا كان أمام ياسين متسعٌ من الوقت لمشاهدة التلفاز عندما أقبل حسان «الميكانيكي» واقترح أن يصطحبه إلى مركز المدينة.

شرح له حسان أن اليوم هو يومٌ عظيمٌ إنه «يوم الغضب» وقد حُدد هذا اليوم لأنه يصادف عيد الشرطة، قال له بأن آلاف الناس سيتوافدون إلى ميدان التحرير مطالبين بالعدالة والحرية، كما أنه لا يرغب بالذهاب بمفرده ومن المجدي أن يرافقه. توجس خيفةً في البداية ولكنه أراد أن يدخل الفرع لقلب حسان، صاحبه، لذلك قرر مرافقته.

استقلا المترو ونزلا في محطة سعد زغلول ثم تابعا طريقيهما إلى ميدان التحرير سيراً على الأقدام سالكين الأزقة ليتفادوا الشغب وهكذا اندسا بين الجموع حتى وصلا ميدان التحرير.

ما رأى ياسين قط هذا الحشد الهائل من الناس، أناسٌ غاضبون يتتالون حاملين أعلاماً ويرفعون معاصمهم ويصدحون دون توقف «خبز. حرية. عدالة» يكررونها باستمرار حتى عندما وجدوا أنفسهم رويداً رويداً محاطين بصفوف من شرطة مكافحة الشغب.

توقع ياسين أن ينفضَ قسمٌ هائلٌ من الجموع ويُضرب من هم أكثر شجاعة بالعصي والمطارق ويدكون في السجن كالعادة. لكن ما جرى كان مختلفاً تماماً، فهنا ما غادر أحد بل بدؤوا بمهاجمة الشرطة، إنه لأمرٌ يفوق الخيال!

التقط الناس الحجارة المبعثرة في ميدان هيلتون النيل وقطعاً من الزفت المكسور ورموا بها على رجال الشرطة، ثم اقتربوا منهم أكثر، لم يكن الخوف يساورهم، رجموهم كالكلاب وتراجع رجال الشرطة كالكلاب المدعورة.

نعم، لقد كان مشهداً يفوق المنطق. بدأ الناس يصرخون فرحاً. تقهقر الكلاب رويداً رويداً لتتسع ساحة الغضب الشعبي. توافد الناس إلى الميدان من كل مكان، من جسر قصر النيل، وشارع رامسيس حتى غصّ الميدان وهدرت اللافتات والأعلام دون هواده.

أرخی الليل سدوله على الميدان لكن الناس لم تبرح المكان بل صدوا الغاز المسيل للدموع ليرموا به رجال الشرطة.

تسلّق أحد الشبان أحد المصابيح التي تدير الميدان ومزّق صورةً كبيرة كانت في الأعلى «صورة لقائد اللصوص» وصرخ الجمع ومعهم ياسين: «ارحل يا مبارك. الشعب يريد تغيير النظام».

فقد ياسين حسان في غضون هذه البلبلة وما تطلبته من ركض في اتجاهات عدة، بحث عنه في كل مكان إلا أنه لم يره مجدداً.

كان قد أخبر سمير بأنه سيعود قبل الساعة مساءً من أجل جولة جمع الريش، ولكنه نسي الأمر تماماً وعندما خطر بباله كان الوقت قد تأخر جداً، خشي أن يعود عندها سيذبحه سمير لا محالة.

تسكع الناس، عند هبوط الليل، في الساحة المضاءة بالمصابيح، يتناهى لمسامعهم صفارات لا يعرفون مصدرها. انضم ياسين إلى مجموعة من الشباب جلسوا بشكل دائري على المرج مقابل مبنى «موغاما»، جميعهم من مشجعي فريق الزمالك و مشجعي الفرق التراس وايت نايتس Ultras White Knights. أخبرهم أنه من دار السلام وهناك يفضل كل الناس فريق الزمالك على الأهلي، فقبلوه بينهم وقدموا له قطعاً من البسكويات ليتناولها.

جافى النوم أحداقهم خشية أن يباغتهم رجال الشرطة لإخلاء الساحة أما ياسين فتمدد على المرج وتوسد فخد أحد الشاذين وهو شابٌ وسيمٌ عريض المنكبين ظل يداعب شعره حتى غفا، في صباح اليوم التالي دعه أحدٌ ما ليوقظه، لم يبرح الحشد المكان لا في الساحة ولا على المرج.

ولكن أقبلت نحوهم عشرات الشاحنات المجهزة بمدافع مائية من شارع القصر العيني وبدؤوا ينظفون الساحة بفوهات الخراطيم.

هرب هو وأصدقائه «فريق الزمالك» إلا أنهم فوجئوا برجال الشرطة عند جسر 6 أكتوبر أعلى الساحة وهم يرمون قنابل مسيلة للدموع وطلقات مطاطية، فما كان منهم سوى الانتشار في أزقة «البلاق» الصغيرة، هرعوا مع آلاف من الناس وسلكوا كل الاتجاهات حاملين نفس الرايات ويصدحون بذات الشعارات. لم يغادر أحد المكان لا بل توافد الناس دون توقف إلى الساحة.

فقدَ أثر «مشجعي الفرق: التراس وايت نايتس Ultras White Knights» وهو الآن يتقفى أثرهم علَّه يتخلص من هذا الشغب ويعود مجدداً إلى ساحة التحرير، ربما يحالفه الحظ ويحظى بحسان.

كان ياسين على استعداد ليقا تل هنا لأيام وأيام حتى ولو أطلقت الشرطة رصاصاً حقيقياً، إلا أنه يتضور جوعاً ويأمل برؤية «حسان» صاحبه، عسى أن يعطه المال ليسد الرمق بطعام ما .

سحب ياسين بينما كان يروي قصته علماً ثلاثي الألوان من جيب سترته وثناه حتى حوله إلى عصابة وعقدها حول رأسه . بالكاد تعرف جمعة على دجاجة دار السلام فهو الآن أمام نائر حقيقي محارب حقيقي، شعر بالفخر أنهما معاً بين جموع المتظاهرين الذين لحقوا على الكورنيش أمام الوزارة.

ركض ياسين إلى الأمام فتبعه جمعة، ثم تسلل بين الحشد الكبير حتى وصل الصفوف الأولى بالضبط أمام مبنى «تلفزيون ماسبيرو»، حيث كان عشرات المغامرين قد كسروا الحاجز، ليتدججوا بالحجارة ويتحول الشغب إلى شغب مسلح بالحجارة..

استشاط رجال الشرطة غضباً وهم خلف دروعهم الشفافة بالكاد يدرؤون عنهم الحجارة التي تنهال عليهم من صفوف المتظاهرين خلفهم، التقط ياسين بدوره حجرتين واقترب منهم، ويلمح البصر وبهذه اللحظة

بالذات انبثقت سيارةً مسرعةً من الشارع المحاذي لمبنى التلفزيون و انقضت على رماة الحجارة، لم تكن سيارةً عادية بل سيارة شرطة مصفحة تابعة لمكافحة الشغب وهي تتطلق بسرعة 100 كم بالساعة واتجهت مباشرةً نحو ياسين وكأنها تقصده هو بعينه لا أحد سواه، ربما لفت انتباههم العلم المعقود على شعره الأشقر أو ربما لأنه الأصغر عمراً أو الأكثر وسامةً أو الأكثر قرفاً.

ما انفك جمعة عن التمحيص بتلك الحادثة رغم مرور الأيام ولكن بتلك اللحظة اكتفى بالصراخ فاستدار ياسين نحوه عندها صدمته سيارة الشرطة ثم لاذت بالفرار بعد أن أفسح رجال الشرطة لها المجال.

لم يتوقف جمعة عن الصراخ وهو يرى جسد ياسين يرتفع في الهواء ويهوي كلعبة ثقيلة مفككة على أحد المقاعد الحجرية في الكورنيش حيث نُسجت منذ يومين فقط أجمل لقاءات عشقٍ.

هرع جمعة نحوه وضمه في أحضانه، كان ياسين ينتفض وعيناه مفتوحتين والدماء تسيل من شعره، حمله جمعة، كان لا بد من اصطحابه إلى أقرب مستشفى، احتار جمعة بأمره فهو لا يدري أين ولا كيف؟ فجال بناظره باحثاً عن نجدة عندما رأى المتظاهرين يتوافدون نحوه ثم سحبوه إلى شارع التلفزيون و ركضوا نحو شارع 26 حزينان.

تناقل جسد ياسين في أحضانه ورأسه المتدلي يهتز مع الركض، حمله أحد الرجال عندما أُرهِق جمعة وركض عابراً حي البلاق حتى وصل شارع رمسيس حيث أوقف أول سيارة تعبر.

جلس جمعة في المقعد الخلفي وسحب نحوه ياسين واضعاً رأسه على رجليه أما الرجل فثنى رجلي ياسين حتى يتمكن من إغلاق باب السيارة التي انطلقت لتوها.

أسبل ياسين جفنيه وهو يئنُّ ألماً والدم يسيل ويتضرج شعره ووجهه ورقبته. ناداه جمعة إلا أن ياسين لم يعد يسمعه لعله بات في عالمٍ آخر.

تساءل جمعة في سره لماذا يفارق ياسين الحياة بهذه السرعة؟ هل سيلفظ أنفاسه الأخيرة بعد تلك الفرحة العارمة التي ملأت قلبيهما بلقائهما؟ ولماذا؟ من أجل تغيير إلى محارب؟ ستبقى تلك الدجاجة الكريمة قدوةً يحتذي بها الآخرون فيعلمون أن الكرم يصل إلى وهب الحياة...

التي يخالها وهميةً أمام واقعية الأحلام، لا شيء فيها يستحق العناء، لا شيء يمكنه كسر هذا الانطباع بوهمية كل ما حوله، رغم أنه يلمس ما يحيط به لكنه يشعر أنه فارغٌ كلياً بل يراوده دائماً إحساسٌ ببطلان كل المشاعر المفروضة عليه.

ما يلقي الرعب في قلب ناتان أكثر من ثقل خطوات الأيام ذات الإيقاع نفسه، هو الأمور الواقعية الطارئة المثيرة للبلبله والتي تخلُّ بمجرى النهر الذي لا يأبه بشيء مثل تلك الرحلة المعلنة إلى مصر والحاح راف الذي يزداد أكثر فأكثر.

يقع فريسة الفخ بين الملل الذي تفرضه الأيام بابتذالها وتفاهتها وبين الخوف من المجهول، بدقة أكثر الخوف من بعض ما هو آتٍ، من بعض المخاوف القابعة في مخيلته والتي لا يعيرها غيره بالأمر مثل والده: فهو يرتاب من هجوم بعض العصيات الغريبة أو الفيروسات الدخيلة على جسده أو ذهنه، يخشى اقتحامها لعالمه العقيم، فهو يخشى أن تقتحم المضايقات الجسدية حياته بأمور أكثر وأقل إزعاجاً قادمة من ضفاف النيل، ويخشى من الإلحاح الذي لا يسأم منه «راف»، يخشى من تعدي العنف على سير حياته اليومية فهو لن يتجاوب مع عنفٍ مجبولٍ برغبةٍ مجنونةٍ إن حبه لمانون، إن كان هذا هو الحب، لا يتسبب له بأي إزعاج فهو لا يتطلب منه الكثير ولا يجد صعوبة بمبادلتها هذا الحب، أما العلاقة مع «راف» فهي مثيرة للقلق مثل ظهور بقعةٍ غير مفسرة على البشرة.

ما انفك «راف» يرسل له الرسائل وهو لا يجيب عليها فبعد أن

أرسل له: «في منزلك أو في منزلي مثلاً» أرسل له كذباً «أريد فقط أن نلتقي» ثم حاول أن يمازحه ربما «تريد أن أموت؟» ثم بدأ يتوسل «نتحدث على الأقل».

وعندما باءت كل رسائله بالفشل انتقل إلى الاتصالات فما هو يطلب رقمه بالبحر، ما بين كل مكالمتين يرن مرة، وفي المساء حين «هز» جواله كان أيضاً راف لكنه لم يجب وراف لم يترك رسالة.

إلى اليوم الذي استسلم ناتان لإلحاحه، يوم كسائر الأيام. تبخرت نعمات صوت والدته وصدى ضحكاتهما في سماء «إيسي» أو في شوارعها أو ربما على فراش «مانون»، أضع حلمه بوالدته الذي راوده مساءً في الحديقة العامة ومع ذلك فقد قرر أن يرى مقاطع الفيديو الخمس لطفولته والمحفوظة على حاسب والده، سيكررها على مرور ساعات رغم أنه يعرف كل صورها وأصواتها، لقد تعرف على كرسي السوحر في حديقة «سافيني». إلا أن الصوت والضحكة يلقيان في نفسه الحيرة فهل هي الحقيقة مصورة في «الفيديو» كما في الحلم؟ حرك هذا السؤال مشاعر ناتان لوقت طويل رغم أنه ليس بالأهمية التي تعطي الجواب، لكنه سؤال يخفي في جعبته تفاصيل جوهرية حول المعنى أو الثقة الذي يحملها لبساطه الطائر في سمائه الفاتنة.

طرح على والده السؤال عن «زجاجة ماء الكولونيا الغريبة» على أنه شاهدها في منامه، إلا أن والده ليس لديه أدنى فكرة عن الأمر وهو لا يذكر شيئاً كهذا، لذلك قرر البحث ولو عبثاً عن مصدر هذه الصورة.

مرت بضعة أيام ليخبره بعدها والده أنه ما زال يحتفظ بأشرطة (DVD) تعود لأول كاميرا رقمية حصل عليها ولم يحمل صورها على الحاسب فما كان لديه الشجاعة الكافية ليرى صوراً تعود لما قبل الحادث الأليم الذي قلب حياته ولكنه سيستجمع قواه.

الكاميرا قديمة جداً ويجب البحث عن كابلاتها، لقد عثر عليها

موضوعة في علبة أسفل خزانة جدارية، لعل بوسع ناتان رؤيتها بطريقةٍ أو بأخرى.

دونّ والده على أحد الأشرطة تاريخ «15 / 2 / 2003» وعلى الآخر «23 / 3 / 2003» العام «2003» هو العام المشؤوم الذي خطف والدته ربما في شهر شباط.

كان على ناتان الانتظار لأربعة أيام فلم تكن بطارية الكاميرا مشحونة، كما أن هناك بعض الإضافات المفقودة مثل بعض الكابلات وشاحن البطارية، بحثاً عبثاً في كل مكان حتى أنهما لم يعثرا عليها في «شبكة الانترنت».

أما لمشكلة الشاحن فقد وافق والده على شراء بطارية جديدة، لن يتمكن إذاً من تحميل الصور على الحاسب لكنه سيراهما على شاشة الكاميرا. وعد والده أن يشاركه رؤية الصور، وأوفى بوعده مساءً يوم الأربعاء حيث جهز كل شيء، أما لويز فقد تذرعت بزيارة لإحدى صديقاتها لتخلي لهما المكان، جلسا على الكنبة في غرفة الضيوف. أمسك ناتان الكاميرا وضمه والده واضعاً يده حول كتفيه.

بدأً برؤية صور «15 شباط»، إنها صور لزفاف «إيريك وسوفي» الذين وقع بينهما الطلاق فوراً كما تذكر والده.

كانت والدته تظهر في «فيلم الفيديو» بين الفينة والأخرى، يقرب الصور «بالمكبرة» لكنه لم يستفد بشيء فالصور ترتجف ووالدته لم تكن تنظر إلى الكاميرا، فمرة الصورة من الظهر ومرة من الجانب، تتحدث مع الناس. قال له والده أنها كانت ترتدي ثوب «Sonia Rykiel»، سترّة صوفية مع عقدة عند الكتف وشرائط أفقية ترسم لوحةً خريفية كئيبة، وتورة منتفخة مصنوعة من فروٍ صناعي أسود. مضت ثلاثون دقيقة لا تحمل سوى صوراً مملة لتفاصيل هذا الزفاف.

قال والده بصوتٍ نائمٍ تقريباً: ذاك الفيلم هناك!

أدخل ناتان الفيديو الذي يحمل تاريخ «23. 2» وهو في نفس ليلة الحادث. تابع والده: لعلي أعرف تماماً ما الصور التي في داخله، كان يوم أحدٍ وقمنا بتصويره لنقدم نسخةً منه لجذتك يوم ميلادها . هذا الفيلم، من بدايته حتى النهاية، لناتان وهو في السادسة من العمر، غارقاً بألعابه في غرفته الخاصة في سافيني، ثم حاملاً «سلوتو» دبه الكسول ويركض في الممر.

تخيل أن أريكة غرفة الضيوف سفينة وبينما كان يلعب سقط على الأرض فضمته والدته لتواسيه .

تناول مع والدته وجبةً خفيفةً في المطبخ، وأخيراً صورته وهو يلعب بزوارقه في الحمام، وضعت له والدته قليلاً من «الشامبو» ثم سكبت الماء وجففته ثم مسدته أو بالأحرى داعبته بماء كولونيا «4711»، آه أخيراً اكتشف ناتان القارورة التي كانت على الرف أعلى الحوض، في الصور الأخيرة للفيلم، كان ناتان الصغير يمد يده لأخذ «القارورة» يلح على والدته أن تعطه إياها فأذعنت لطلبه على ألا يقلبها ما فعله للتو، تاركاً «ماء الكولونيا» يسيل على ساعدها العاري الذي يتمسك به .

البر الوحيد بعد أن أغرقته أمواج متلاطمة لبحر هائج هو حضن والده الدافئ الذي شدّه إليه بقوة ولم ينبس ببنت شفة أثناء عرض الصور، صُعب بذاكرته العجيبة التي تخفي في جعبتها كنوزاً في عمق أعماق عقله، وبالقدرة المذهلة للحلم الهندي على ترك العنان لتلك الذكريات الدفينة، هزته انفعالاتٌ غريبةٌ، أيد من الحياة الحقيقية امتدت إليه فغرغرت عيناه بالدمع يتحرق شوقاً لاستعادة «سلوتو» .

شاهد لاحقاً الفيلم لثلاث مرات على التوالي، فيوقف العرض ويبطئ الحركة عند بعض التفاصيل وخاصة عندما تمرر والدته أصابعها في شعره وعندما تحمله عن الأرض لتضمه .

استمتع بقدرته على تحريك الفيلم كما لو أنه لعبة فيديو لا ليستمتع

بالشراسة وإنما بحب صافٍ ينثره ذاك الحلم، من صور الأمس التي عاشت فيه وعاش فيها دائماً.

حقاً لم يكن لهذه الصور نفس وقع لعبة الفيديو ولم يكن الوعي فيها شديد التركيز كسهمٍ ينطلق إلى الهدف، لكنها سحرٌ أكثر رقة تتيح متعة اللعب مع الزمن حيث يحرك طبقاته وذهابه وعودته ويغير مشاعره. سئم بسرعة من هذه اللعبة، خارت قواه أمام لهيب هذا الحرق القادم إليه من الماضي والمحفوظ تماماً في ذاكرته، فعصفت به الأم حُب ضائع وحنينٌ لعصرٍ ذهبي وسعير مأساة قادمة تلوك صورها قواه بسرعة، ولأنه كان سيد الزمن في هذه اللعبة، كان واثقاً أن الألم لن يصرعه أبداً.

ترك الفيديو يعرض صورهِ وحيداً من دونه ثم وضع «الكاميرا» على الفراش إلى جانبه، واستسلم لمتعة صدى الأصوات المترددة في الغرفة في عتمة لا يثني سوادها سوى الضوء الخافت للعرض، أبحر في صدى صوت والدته وصوته بعمر الست سنوات وهما يصدحان كجوقة موسيقيا بتلك الأغنية التي ألفتها والدته وهي تعانقه، تلك الأغنية التي لن ينساها أبداً: «أحبك جداً وتحبني جداً، إننا نحب بعضنا جداً...».

لم يكن الوقت قد تأخر بعد، إنها الحادية عشر مساءً إلا أنه كاد يغفو حين بدأ «i-phone» بالارتجاج، من هذا الذي يجروء أن يطلبه في مثل هذه الساعة: إنه راف!

امتزج هذا الرنين مع حشرجات حدادٍ وصخب الماء والضحكات في حمام سافيني، ثم خطر له أن إلحاح راف الذي أثقل عليه طويلاً لدرجة أنه لم يعد يعرف كيف يواجهه قد يعبر عن ألمٍ كبير لا عن عنادٍ فقط وتذكر أحد «المشاهد» التي راودته منذ زمنٍ طويلٍ حين رأى راف يطرق بابهِ راجياً أن يفتح له بعد أن جرح بحادث سير.

قبل أن يبدأ المجيب الآلي، فتح الخط مما فاجئ راف كثيراً، فارتبك

باحثاً عن كلماته المفقودة فما عثر إلا على التافه منها ليقول: «ألست
نائماً؟»

بصوتٍ خارجٍ من غياهبٍ كهفٍ فيكسرُ أعجوبةً وسحرَ الثرثرة ندم أن
فتح لها الباب.

أردف قائلاً: «هناك سوء تفاهم...» مقدمةً لحوارٍ بيدو معداً
وطويلاً لكن ناتان لم يكن مهيباً ليسمع هذا الصوت وخاصة في هذا اليوم،
فقاطعه بسرعة ضارباً موعداً: «غداً في المسبح»، ما كان من راف سوى
المسارعة بالقبول.

قلق ناتان بعد أن أغلق جواله من حساسيةٍ جلدية يسببها الكلور
وأربعه ذلك فكتب رسالةً لراف: «غير ممكن غداً سأكلمك لاحقاً».
خمن الألم الذي سيتسبب به لراف بعد الأمل الذي حظي به، فعجز
عن التفكير وهو يتخيل ضيقه من ماء المسبح وغرقه جرأه الاختناق بالماء.
تفاقم الرعب وشعر...

أن قلبه يخفق بشدة وساقاه ترتجفان وهو يطأ مستشفى «قصر
العين». ياسين بين يديه حقيبة جامدة ولكن لم يسارع أحد لمساعدته.
اقترب إلى مكتب الاستقبال حيث كانت امرأة سمينه تحتسي الشاي، سألته
كما لو أن عمى قد أصابها:

- ماذا تريد؟

أجابها بكل سذاجة كما لو أنه يكفي الدخول إلى مستشفى للعثور
على طبيب:

- طبيباً...

متناسياً أن ما بين يديه فتى تضرج بدماثة ولعله قد سلّم روحه
لبارئها.

وضعت السيدة السمينه كأسها وألقت نظرةً على ياسين ثم أجرت

اتصلاً، فحضر للتو رجلان بزِيٍّ أبيض يدفعان نقالة المرضى ذات العجلات ثم لما عليها الحقيبة الجامدة، وضعا عليها ورقةً أعطتهم إياها السيدة واتجهوا نحو المصعد .

تبعهم جمعة غير آبهٍ لأوامر السيدة بالبقاء هنا، لكن الرجلان منعا من دخول المصعد الذي أوصدت بوابته أمام أنفه . واساه وجود ياسين بين يدي طبيبٍ جيدٍ في مستشفىٍ كبيرٍ فإن كُتِبَ لياسين الحياة سيشفى لا محالة ويعود ليملأ شوارع دار السلام بضحكاتٍ سعيدة .

نقصُ الممرات الطويلة ذات الطلاء الأخضر الباهت بلافتات وأسهم يعجز عن فك رموزها التي تركله في عالمٍ مجهول يتعلّق فيه وحيداً مهجوراً، يراقب الناس يهرعون قلقين خلف أي زيٍّ أبيض يعبر نحو القاعة الكبيرة .

نادته السيدة السمينة مرةً أخرى، فعاد إلى مكتب الاستقبال، حيث طرحت عليه سؤالاً :

- هل بحوزتك بطاقة الهوية الخاصة بالمريض؟

تساءل جمعة في سره ترى هل هي غريبة عن البلد أم أنها تسخر منه، رجّح الاحتمال الثاني فكل المصريين يتوقعون أن ياسين ذي السترة القذرة والشعر الكثّ هو لا محالة من سكان الدرك الأسفل أي أنه قطعاً لا هوية له وإن تأمل كثيراً قد يحمل «وضعاً مدنياً»، فأجابها :

- هل تريدان أيضاً جواز سفره مع الفيزا الأميركية...

انبسطت أساريرها بعض الشيء وقالت:

- حسناً، أخبرني على الأقل ما اسمه؟

- اسمه ياسين من سكان الحي العلوي في دار السلام.

- ما اسم عائلته؟

- كما قلت لك اسمه ياسين من سكان الحي العلوي في دار السلام،

كل الناس يعرفونه هناك لا حاجة له لاسم ثانٍ، عمل حتى ليلة أمس لدى سمير جامع الريش.

- ولكن ماذا سأكتب؟ ياسين من سكان الحي العلوي في دار السلام الذي يعمل لدى سمير جامع الريش.

- حسناً سيدتي، أجل فلتكتبي هكذا، لن يخطأ به أحدٌ، إنه هو.

تنهدت السيدة وقالت:

- يا بني! ليس لدي فراغٌ يتسع لكتابة كل ما ذكرت، يلزمني اسمٌ قصيرٌ يتسع في مربع الفراغ. كما عليّ أن اكتب اسمك في المربع الخاص بمرافق أصحاب الحوادث، وأنت لا بطاقة هوية بحوزتك؟

يعيش جمعة وياسين دون اسم عائلة ولا حتى هوية. يدعوه الناس منذ زمن طويل «جمعة» دون أي إضافة، إنه اسمٌ غريبٌ أو بالأحرى اسمٌ نادرٌ يدلُّ على أحد أيام الأسبوع كما لو أنه ولد يوم «الجمعة». أما بالنسبة لبطاقة الهوية فلا بد من تقفي آثاراً لولادته في السجلات المدنية إلا أنه لا يعرف اسم عائلته ولا حتى مكان ولادته.

ليس بحوزة أي طفلٍ من أبناء الشوارع بطاقة هوية ما يقدم لرجال الشرطة حجةً ممتازة لابتزازهم فيقتادوهم ويوسعوهم ضرباً فلا جنياً واحداً في جيبيهم يدسوه لهم. تحرمهم الحكومة من كل شيء فلا وجود لأي طفلٍ من أبناء الشوارع، وهم عرضةٌ ليخطفهم «الغيلان» وهم كما يقال جنرالاتٌ يعيشون في قصورٍ من ذهب فيسرقون أعضاءهم قبل أن يتخلصوا منهم نهائياً. تلك هي الشائعات التي تتردد في دار السلام وخاصةً لسرقة الكلى والتي تضاهي ثروات المهربين المصريين الذي يبيعوها لأصحاب «المليارات» في الخليج العربي فهم مفرطي السمنة ومصابين بداء السكري. أفضل المهربين من يشتري الكلية من الفقراء بثمانٍ بخسٍ لبيعها بعشرة أضعاف والأسوأ يسرقونها من الأطفال الذين لا وجود لهم، هكذا فُسِّر غياب عبد الله الطفل ذو الأعوام الثمانية والذي

عمل كعبد تقريباً عند صانع «الحواتير»، غاب عبد الله بين يومٍ وليلة ولم يأمل أحدٌ بعودته.

قال جمعة للسيدة:

- اكتبي جمعة - العلب؟

- جمعة - العلب؟

- أجل فأسمي «جمعة» وأقوم بجمع «العلب» لأبيعتها من جديد .

- حسناً سأكتب «جمعة العلبي» إنه يتسع بالفراغ المخصص، عدُّ غداً

للحصول على أخبار عن ياسين.

ألح جمعة أن يعرف شيئاً عن وضع ياسين الآن ورجاها أن تتصل

بالطبيب لكنها هددته أن تتصل بالحراس إن لم يغب فوراً عن النظر.

يعجُّ الكورنيش بالمارّة لكن الوحدة عصفت به.رافقته الشمس حمراء

اللون، وهو يتعلق بدرجة بباصٍ يعج بالملّات نحو دار السلام، وغمرته

بشفقها في هذا الفراق الجنائزي، ها هي تنزلق معه على ضفاف الموت

لتغيب خلف الطرف الآخر للنهر وراء الأهرامات قبل أن تبتلعها سحب

الدخان التي تجرها العربات.

يلف شريط الصور الأخير لياسين أمام عيني جمعة دون توقف، فما

انفك يتذكر حماسه الشديد وجرأته، وتلك الرشاقة التي اندس فيها بين

المتظاهرين راكضاً إلى حتفه.. لن ينسى قط نظرتة الأخيرة قبل أن تصدمه

السيارة فيطير جسده مبعثراً فوق الأشجار ويسقط كالريشة على مقعد

العشاق. يلهث جمعة الآن للبحث عن رجب ليلقي بين يديه هذه القصة التي

آلمته فيشاطره الحزن ويكفكف دموعاً قد يذرفها أخيراً، ثم يذهبان معاً

للقاء حسان، صاحب ياسين، يا لها من لحظةٍ مرعبة! لا شجاعة كافية

لديه لمواجهة وحده، لا بد أن يرافقه رجب.

عبر فوق جسر المترو حيث وعده رجب أن ينتظره، إلا أنه لم يكن

هناك. لا بد أن السأم قد نال منه فاتجه إلى قهوة «أيمن» في الحي العلوي.

اكتظت أزقة الحي السفلي بالناس الذين تعلقت أبصارهم بقناة الجزيرة تبثُ صور حرب التحرير، أمام المقاهي والمتاجر. ودَّ جمعة لو يلوح وجه ياسين متوجَّحاً بعلمه ثلاثي الألوان على الشاشات فيعرف الجميع هنا أن ذلك الفتى الذي طالما نعتوه بالعائب والعاهر والكراج هو الآن بطلٌ ولربما أصبح شهيداً. رغب أن يصرخ بالفم المألن ولكن لن يصدقه أحدٌ إن لم يروه على شاشة التلفاز، فلملم يأسه واتجه بخطى واسعةً ليرتقي الأدراج علّه يصادف رجب.

تمنع حواجز الشرطة الناس العبور من الحي العلوي إلى السفلي ولكنهم يرحبون بالقادمين إلى الحي العلوي ليغلقوا على أنفسهم ويلتزموا الصمت في فراغٍ محاصرٍ. عبر بين صفوف الحرَّاس ذوي الزي الأسود وعندما تجاوز الصفَّ الأخير لمح «الضابط» لم يبرح مكانه، فقال في سرِّه أن ما كان عليه المرور من هنا وقد اقترب خطأً ولكن للأسف فات الأوان، ها هو الآن في مواجهة الضابط أمام الدرجات الأولى يجلس مفرشخاً على الكرسي بيده كأس شايٍ وبيده الأخرى عصا «الشيثة» ذات الدخان.
عوى الضابط قائلاً:

- اقترب يا ابن الخنزيرة!

اقترب جمعة عدة خطى نحوه وهو يدرك أنه يقترب خطوة إلى تعذيبٍ طويلٍ لن يفلت منه أبداً.

- اقترب أكثر!

فاقترب جمعة أكثر بخطى ثقيلة خشي من الابتسامة اللطيفة التي رُسمت على وجه الوحش حسام، خشي من رؤية نيوب الليث بارزةً.

سحب الضابط طويلاً ثم زفر نفخةً طويلةً من دخان الشيثة وشاح بناظريه بعيداً عن جمعة كما لو أنه لا يساوي حتى نظرة. سأل بصوتٍ خافت: - ماذا فعلت بكيس الريش؟ طال انتظار سمير أمس ولكن ما رأيك أحدٌ في الحي أين كنت؟

- هنا، باشا، هنا . ولكنني توقعتك بعض الشيء في طريقي إلى سمير، فوضعت الكيس هناك خلف الجدار بعد جسر منيب لئلا يسرقه أحد، ثم لم أعد أدري ماذا حلَّ بي، ربما فقدت الوعي بجانب الكيس. هذه هي الحقيقة باشا أحلف بذلك.

استدار الضابط نحوه أخيراً مبتسماً:

- جمعة «بي» الرقيق، يفقد الوعي كحسناً شابة! وعندما استقلت المترو في الساعة «الثالثة إلا خمس دقائق» كنت قد أفقتَ أم حدث ذلك فيما بعد؟

- لست أنا، أنا لم أصعد إلى المترو باشا .

- آه، لا بدُّ أنه توأمك لا بل يرتدي نفس الكنزة التي يفوح منها رائحة الدواجن النتنة على بعد 200 متر.

لاذ جمعة بالصمت فما عاد في جعبته ما يقول ولا حتى بصيص أملٍ يتعلق به، ليس له الآن سوى الاستسلام لعنف هذا الوحش، فهياً نفسه للإهانة وجسده للألم.

توقف المساعد عن طرح الأسئلة وعاد يحتسي الشاي المغلي وينفخ بين رشفتي شاي دخان «الشيشة» الأبيض الكثيف، جاهر باستمتاعه بها مصدراً طقطقةً باللسان ونهدات ابتهاج، وكلما رمق جمعة بنظرة الوعيد ابتسم له كما لو أنه يريد القول للغلام أن متعته بالشاي والتبغ المعطر تلُوح بمتعته الوحشية القادمة.

أخذ وقته، لعله ينتظر هبوط الليل الذي سارع بخطى كبيرة مرخياً عتمته وبرده، رويداً رويداً فرغت الشوارع لتتركه وحيداً في مواجهة جلاده. أخيراً، وضع الكأس جانباً ولف حبل الشيشة حول عنقها، فهرع أحد خادميه من المجموعة ذات اللباس الموحد لأخذها، ثم نهض عن كرسیه وخطا خطوة واحدة وكأنه يقصد صف الحراس ذوي الزي الأسود، استدار فجأةً وصفح جمعة بعنفٍ لدرجة أن ترنح مرهقاً وانهار على الأرض.

تنتهي لمسامعه صوته وهو يأمر المساعد صفوت باصطحاب الغلام إلى قسم التحقيق، شعر أنهم حملوه من كتفيه ليقف لكنه ترنح وكاد يسقط أرضاً لكن صفوت أمسكه وسحبه شرطي آخر من كنزته إلى أن رمياه في مؤخرة سيارة زرقاء مدرعة حيث استعاد وعيه تماماً. لم يكن يفكر بالعذاب الذي سيكابدُه في قسم التحقيق، ولا في الجحيم حيث يجهل عدد الأيام التي سيسرقوها منه ليعرضوه لجرائمهم أو ربما للموت، ما يقض مضجعه الآن هو أنه لم يلتق برجب وحسان ليخبرهما عن ياسين الذي تركه وحيداً يعاني في المستشفى أو لعله لفظ أنفاسه الأخيرة مهجوراً بمفرده هناك.

لم يتغير جحيمهم قيد أنملة، إنها ذات القاعات الرمادية التي لم تخضع قط للتنظيف في قسم شرطة دار السلام المنار بمصاييح تستقطب آلاف البعوضات، وتعج فيه روائح العفونة فهي مزيجٌ مقيت للمجروح مع القمامة بالإضافة للمبولة وبتانة الأجساد التي ما اغتسلت منذ أيام.

يحتفظ مكتب الاستقبال ومكاتب الطابق الأرضي بمظهر مبنى إداري عادي فقير هراءٍ جرأء الاستخدام الطويل، يغص بموظفي قسم الشرطة الوقحين والذين يتكاثرون في المساحات الشاغرة بين الخزائن الجدارية المصنوعة من صفائح حديدية وأكوام السجلات التي تكسوها طبقات من الغبار ألفت المكان منذ زمنٍ بعيد.

كل هذه الفوضى العارمة حيث تترسب كل أنواع النباتات ليست الجحيم بل الجحيم الحقيقي يقبع تحت الأرض في قبو لا نوافذ له، خلف الدرج حيث يقفون «معذبي الأرض» قبل الجمعة.

لم تعد وجهته مجهولة، سيصل إلى المرزقي النور الخافت، على جانبيه صفان مؤلفان من أربع زرنانات بمساحة 12 متر مربع يتكسد فيه حوالي عشرين سجين. تبقى إحدى هذه الزرنانات شاغرة دائماً لتستقبل من سيتم التحقيق معهم أو من سيتعرض للتعذيب فقط لمتعة التعذيب،

فهم يعرفون براءته وليس بحوزته ما يعترف به، هذه غالباً حالة أطفال الشوارع.

عبر «جمعة» أمام تلك الزنزانات ذات القضبان، لا نور فيها، تلتمس الضياء من الممر، فتمكن من تمييز السجناء الذين يمدون أيديهم عبر القضبان يطلبون الماء من الحراس، حشرجات ونواح الجرحى الممددين تفتحم العتمة المرتجفة بسعالٍ أجشٍ لأحد المرضى المسلولين ربما .
رموه في غرفة التعذيب مع نفس الأدوات التي ذاق عذابها في المرات الأربعة السابقة إحداها مع ياسين:

دبابيس وحبال كهربائية موصولة بالتيار، وعصي مكانس لم يتعرض لها بأعجوبة وكلاّباتٌ معلقة ببراغي في السقف حيث يعلقون الضحية على حاجزٍ...

تأكد ناتان أنه لن يهوي أمام المهمة الموكلة إليه، لن يحمل الحاجز جسده إن أفلت فجأة فهو لا ينوي شنق نفسه ولا حتى يرغب بالموت، وإنما مجرد أسلوب لسحب نفسه حتى يجثو على كعبيه وتتحمل ساقاه ثقل جسده، يجب أن يشد الوشاح بحذر على مستوى الشريان السباتي، ولا بد أن يبقى بعضاً من الوعي يقاوم الحلم ليتمكن من النهوض وحلّ الوثاق حول رقبته، فكر بضبط منبه الجوال ليتفادى وقوع أي حادث فالرنين والاهتزاز سيعيدانه لوعيه، إن اقتضت الحاجة. سيضبطه بعد مرور عشر دقائق فقط في المرة الأولى وسيمدد هذه الفترة رويداً رويداً حتى لا تتجاوز «3 دقائق» أكثر، فهذا هو الحد الأقصى الذي لا يجوز تخطيه.

علو القضيب المعدني في خزانة الملابس يكفي ليتعلق بوشاح طويل ينتهي بعقدة متحركة، عليه تحديد المسافة بين القضيب والعقدة بدقة متناهية، بالسنتيمترات. يمكنه تحديدها بعد ربط الوشاح بالقضيب المعدني ثم يقوم بتغيير مكان العقدة حسب الطول المناسب.

فكر ناتان بالطريقة المثلى ليصل لمراده دون خطر، فتوصل لطريقةٍ تدريجية وهي أن يجثو على كومةٍ من سبع ألبومات تانتان، يضع العقدة المتحركة على العلو المناسب لتشد على رقبتة ثم يسحب الألبومات الواحد تلو الآخر، عند الألبوم الرابع «هدف القمر» شعر ببدء الاختناق، حرك العقدة نحو الأسفل قليلاً فما عاد يشعر بالضغط إلى أن وصل للألبوم السادس «معبد الشمس»، لدى وضعه الألبوم السابع «سيجار فرعون»، لم يتسبب بالاختناق بما يكفي لقطع الأوكسجين، فألقى الألبوم الأخير.

هذه المرة بات الأمر مناسباً، ضبط «المؤقت الزمني» لمدة «10 دقائق» وأمسك بجواله وبدأ بدورانه السريع ثم نهض فجأةً وهو يحبس أنفاسه ثم ترك نفسه يقع ببطء حتى جلس على كعبيه. بدأ ضغط الوشاح على رقبتة يزداد شيئاً فشيئاً، أطلق المؤقت الزمني وشده بيده التي أصبحت منسية كسائر جسده يغوص في أعماق مسبحٍ بمائه الفاتر الشفاف، شعر به لدرجة أن تساءل هل هذا ماءً حقاً أو مجرد فراغٍ مبهٍ بضوءٍ أبيض، إنه يسبح بانعدام الجاذبية فلف حول نفسه دون جهدٍ يذكر، في نشوةٍ عارمةٍ تحلق به للأعلى وتهوي للأسفل حتى تناهى لمسامعه أنغام البيان مبعثرةً تتساقط كقطراتٍ من الكريستال على وجه الماء، فاخرق السحب المتموجة المتعددة الألوان ليكتشف مصدر هذه الموسيقى الساحرة، هذه الهدفة المتراقصة على ضفة البحيرة المتلاثلة حيث تعبق جزيرة الكنز التي اكتشفها بعطرٍ زهري خلّاب، على مقربةٍ من الشاطئ ذي الرمل الأبيض يعانق صفاً من أشجار جوز الهند والمانغو والجوافة.. ها هو مصدر الألمان.. فتاةٍ شقراء بمايو أبيض اللون، تطلق بيدها ألماناً عندما تتمايل على الرمال فتساقط خلفها حصىً سوداء صغيرة الحجم بسرعةٍ تتزايد أكثر فأكثر حتى ترتجف الأرض تحت خطواتها، هذا الارتجاج الرنيني سحبه من حلمه ما هو سوى ارتجاج ورنين جواله.

وجد نفسه فجأةً منتصباً على ركبتيه، وقد انحل ضغط الوشاح حول رقبته ليستعيد قدرته على فك وثاقه قبل أن يسقط على «ألبومات تانتان» أسفل خزانة الثياب المعتمة. وها هو يستعيد وعيه رويداً رويداً في وضعٍ جنيني يرتاح فيه.

طالما أحب رائحة هذه الخزانة المألوفة حيث تمتزج روائح الجلد المستعمل والصوف القديم المنسي وشذى من «حديقة على النيل» عطره المفضل.

يتملكه الارتياح هنا كما لو أنه في عربة مغلقة تتسرب إليه بعضاً من الأصوات في الخارج معانقةً رنين أنفاسه.

حلمٌ جديدٌ واستغرابٌ جديد، من أين جاء «عطر الورد» تلك التي أحبها والده؟ لم تكن رائحة الخزانة، فمن أين هبت؟ ثم تذهله هذه القدرة الجديدة كلياً في معرفة تلك الأشجار التي رآها لأول مرة وما تردد بمعرفة اسمها «مانغو وجوافة». منذ زمنٍ طويلٍ اصطحبه والده إلى الحديقة النباتية في «أوتوي»، لعله أخبره عن تلك الأشجار لكنه لا يذكر ذلك بالحقيقة.

أكثر ما يثير فيه الحيرة في الحلم الهندي وكذلك في الأحلام التي تراوده ليلاً هو ذلك الاختصار اللحظي لقصةٍ طويلةٍ جرت وفق منطقٍ لا يخضع للجدل لتفضي إلى نهايةٍ هي من أشعل فتيلها: رنين المنبه. كيف للدماغ أن يخلق كل هذه الأعاجيب حين يُطلق له العنان؟

لا غرابة بحوض السباحة فقد أمضى أكثر من ساعتين في مسبح «إيسي» برفقة راف حين تردد بالرفض لكن متعة انعدام الجاذبية والنور في الحلم والألوان ليس لها علاقة بالبلدية التي تملأ المسبح بماءٍ فاترٍ مشبعٍ بالكور، تمكن مؤخراً من احتمالها، حيث تدوي ضوضاء الأطفال كما لو أنهم في كاتدرائية.

هناك في المسبح، بدأت حكايته مع راف:

قطعا طول المسيح وهما يسبحان ويفوصان ثم جلسا على طرف المسيح ليلتقطا أنفاسهما وبدأ يثرثران عن المدرسين والطلاب وينعتون البعض والآخر بما يناسب، وهكذا إلى أن انزلق الحديث رويداً رويداً نحو اعتبارات جنسية صرفة، حيث أراد راف أن يعرف ما رأيه بالعلاقة بين الفتیان، فتظاهر بأنه لم يصدق ناتان حين قال له أنه ما فكر قط بالفتیان الذي أتى على ذكرهم وأنه يميل فقط للفتيات، فسأله بنوع من الإلحاح:

- لكنك لم تقل «لا» ذلك اليوم، لم تبد مرتاحاً و لكن أيضاً لم يملكك الاشمزاز.

- لم أكن مشمئزاً ولكن لا بد أنك لاحظت أنني لم أكن متحمساً.

تساءل ناتان في سره عن السبب الذي دفعه للموافقة حينها ولماذا لم تثر قرفه؟ ربما لأن راف يشبه الفتيات، فعندما أسبل النور على وجهه وجسده ضياءً النهار اللامع الغارق في الزجاج المكسور، بدا له شديد البياض ورشيقاً بالكاد يغطي جسده زغبٌ لدرجة أن يصعب التمييز بينه وبين فتاة.

المشكلة تكمن في هذا الوجه الطفولي الملائكي والذي بأسلوبٍ غامضٍ ومبهم، يقدم أشياء مفسدة وقوية لا بل عنيفة تتنافى مع مظهره الروحاني. ما عاد الآن ناتان يفكر سوى بالخروج من هذا الصراع الذي أرقه فهو لا يميل إلا لعلاقة سلسة ومتناغمة تمنحه إيها مانون في أحضانها العذبة. لعله قد يهوى فتيات أخريات مثل تلك الفتاة ذات العينين الخضراوين والبشرة الشاحبة المزركشة بالنمش التي صادفها في المسيح مرتدياً مايو أبيض اللون يشف عن نهدين بلون بشرتها النفيس يرقصان لخفقان قلبها بإيقاع أنفاسها اللاهثة. قطعت طول المسيح ثم ارتقت السلم كاشفةً عن فخذين ببياض لبني متقزح، فالتقت نظراتهما مرتين وهو يتأمل جسدها الرهيف الممتلئ حتى جاءت لتجلس صدفةً

بجواره، تهفّف على وجهها خصلتان شقراوان ضاربتين للحمرة قد أفلتتا من قبعتها .

لم يكن راف قد توقف بعد عن المقارنات بين الفتية وفي تلك اللحظة بالذات قال كما لو أنّهما ما زالاً بمفردهما، أو لعله لم يلحظ الفتاة التي حطت بجوار ناتان:

- حسناً، هل تريد أن أقول لك من هو أكثر الشبان إثارة في المدرسة؟
لم يجبه ناتان لا لأن خيار راف لا يعنيه فحسب وإنما لأنه سؤال غير لائق بحضور هذه الفتاة التي لمست يدها أنامله فسرت فجأة في جسده رغبةً عارمةً أعيت رجولته .

تابع راف: إنه أنت.

رمتها الفتاة بنظرة، لا بد أنها سمعت ثم سحبت يدها ورمت نفسها بالماء وسبحت حتى الطرف المقابل.

تابع راف بصوت متردد خافت شديد التأثير كما لو أنه لم يلحظ الفتاة وكأن لا شيء أكثر أهمية من حديثه الممل:

- أنت بالنسبة لي تمثل أكثر من مجرد إثارة..

بالكاد أصغى إليه ناتان فهو ما زال يتابع الفتاة ذات الشعر الضارب للحمرة والعينين الخضراوين، قطعت حوض السباحة ببعض حركات كرول^(*) رشيقة ثم خرجت عبر سلم الطرف الآخر ولكن هذه المرة لتختفي نحو المشالج.

رغب ناتان بهذه اللحظة بالذات أن يقول لراف أنه «أحمق»، لكن شيئاً ما منعه، ربما إحساسه بأنه ليس الوقت المناسب وخاصة أنه أدرك أخيراً ما قال الفتى، أما هو فما كان لديه سوى رغبةً عارمةً باللاحاق بتلك الفتاة، فنهض قائلاً: «سأغادر».

(*) كرول: سباحة سريعة يكون فيها الرأس مخفوضاً في الماء و تتناوب الذراعين و الساقين بالحركات.

لم يدرك أن راف قد فسر مغادرته المبالغته تفسيراً خاطئاً، فقال له:
«ستغادر للتو؟». لكن ناتان لم يجب فتبعه راف إلى المشالح.

للأسف لم تكن الفتاة عند «المغاسل، لا بد أنها ترتدي ملابسها في
إحدى الحجرات، فأدرك أنه قد فقدها.

ذهب ناتان ليحضر سائل الاستحمام فائق النعومة برائحة البطيخ
والخيار، فتبعه راف وظل يلاحقه حين دحك جسده تحت مرش الماء
لاجتثاث أي أثر للكور وأيضاً حين عاد إلى حجرة الملابس حيث توسل له
بالدخول، يزداد إلحاحه بازدياد الرفض محاولاً مساومة ناتان بقبلة،
بمداعبة، بمجرد لحظة، بيد أن ناتان كان يستمتع بنظافته والرائحة
الهفافة العذبة التي نشرها سائل الاستحمام على بشرته فلا يرغب
بالفوضى التي يعيها راف دون فائدة تذكر.

توجس ناتان خيفة من إلحاح راف المثير للشفقة ومن شغفه المبالغ به
واعترافاته التي باح بها مؤخراً، فرغب بالابتعاد عنه سئماً المقاومة فدفعه
دون مراعاة وقفل الباب بالفتاح. سمع صوتاً غريباً وهو يرتدي ملابس
قادم من الحجرة المجاورة، إنه راف، فألصق أذنه على الجدار الفاصل
ليكتشف دموعاً حاراً تهطل من عيني المطرود ...

كطفلٍ يائسٍ، تساءل من أين يأتي هذا البكاء الذي أخرس السجناء
جميعهم. طفلٌ ضائعٌ وجد نفسه يغوص في العتمة التي تلتهم الزنزانين
المقابلتين لزنزانه جمعة، لم يتمكن من رؤيته لكنه عرف من صوته أنه طفلٌ
لكنه ليس من «أبناء الشوارع» فهم لا يبكون أو بالأحرى لا يذرفون الدموع
بحضور أحدٍ أو على الأقل في جحيم الرجال ذوي الزي الأسود.

لا بد أنه فتى قد ألقى هنا للمرة الأولى، تم إيقافه سهواً أو لخطأ
جسيم قد ارتكبه كأن تسبب بحريق ما أو ارتكب جرماً ما أو سرق هاتفاً
جوالاً، وهو الآن يفكر بأحضان والدته. لا بد أنهم عاملوه بقسوة أو أكثر من

ذلك، كما حدث أحياناً أن يرموا فتىً في سجنٍ حيث تعفن منذ زمنٍ فيه أشخاصٌ وضيعون، يبقون دائماً في غياهب هذه السجون وحوشاً يلقون الرعب في نفوس المساجين الآخرين. منهم عصابات ومنهم ساديين ومنهم متوحشين محكومين بالإعدام وما عاد لديهم ما يخسروه، يخضعون لرئيس العصابة ليتمسكوا بحياتهم. بين هؤلاء الضواري، هناك بعض الأبرياء، تشع وجوههم بالطيبة كمرآة لأرواحهم المطمئنة، رغم ما يكابدون من آلامٍ ورغم الدم الذي يسيل من جراحتهم إلا أنهم يسعون لإيجاد توافقٍ بين الرجال خلال إقامتهم في السجن.

ذات مرة ومنذ عدة أشهر، صادف «جمعة» ساحراً ينتزع الآلام من المعذبين، ومرةً، التقى بتاجرٍ فاحش الثراء، حوّل غرفة السجن إلى قصرٍ بفراشٍ مريح ومراوح وولائم تأتيه على الغداء والعشاء، وما أهمل السيجار والحشيش و حتى القنوات الفضائية الخاصة بكل الوضيعين، إلا أنه ما أقام سوى ثلاثة أيام. ما إن خرج حتى صادر الحراس كل ما كان بحوزته.

أمر أحد السجناء «الغلام» أن يلتزم الصمت ويتوقف عن البكاء خيراً له من أن يوسعه ضرباً، فهذا النحيب قد أثار أعصابه ودفعه إلى الجنون.

لاذ الغلام بالصمت بعد بضع شهادات مكبوتة، فعاتت الأحاديث تسيل بين المساجين وأخذ جمعة يفكر بمصيره، يتساءل: لم رموه في غرفة التعذيب وها قد مضت ساعتان وما اكرث به أحد؟ لا بد أن المساعد قد أستدعي لمهام أكثر قذارة في ليلة يلتهم الهياج الشعبي سكونها، أو لعل كثرة الضرب قد أعيت الحراس طيلة اليوم، فاستسلموا للراحة مع هبوط الليل وسلموه لعقوبة أشد، عقوبة تركه بين وسائل التعذيب ليتعذب ألف مرة قبل أن ينالوا قسطاً من الراحة ويقبلون إليه، فرؤية المسامير والحبال الكهربائية لا تبعث الطمأنينة في النفوس.

ألم كثيراً هجر ياسين وحيداً في المستشفى لكن الظمأ الآن طغى على كل الآلام.

لا بد أن كل الماء في جسده قد تبخر في شوارع الحرب، فما روت المياه عروقه مذ كان في زقاق السوق أمام المترو حين ترك كيس الريش قرب السكة الحديدية، جفّ فمه وتيبس لسانه فقد ركض لساعات وحمل ياسين طويلاً، أعياء الإرهاق فافترش الأرض المطلية بالإسمت وخذ للنوم بعيداً عن القضبان متحاشياً النور في إحدى الزوايا التي ابتلعتها العتمة لتكاثر فيها أنواع غريبة من الحشرات.

أطبقت سرطان البحر على ساقه فطرده للتو، وتمدد على طوف لن يتمكن دفعه سوى رجب ذي القوة الخارقة، اقترب من المنحدر فلاحت عبر الضباب الخفيف ناطحة سحاب تلمع كالذهب بين يدي الشمس المائلة للغياب، مزروعة بالبيارق والأعلام، يغمرها من الخلف جبال برؤوس بيضاء حيث تنحدر شلالات براقية، ها هي فرنسا، فيض من نور وماء وغنى. تشبث الفلاحان بالطوف لئلا يشربا من ماء البحر، فالشرب هنا يعني الموت. يحيط بهم الموت من كل جانب ويصعد إليهم من الأسفل، لا خيار لهما سوى التجذيف إلى الأمام، لا مخرج إلى الحياة سوى بالمضي قدماً نحو الضفة المنيرة مهما كلفهما الأمر. من حولهم، أسطول من الطوافات تغص بالعطش، على مقربة من طوافته، غلام صغير يرتدي «غلابية» بلون أزرق غامق، لم يكن يعرفه ولم يميز وجهه ولكن يبدو أنه فلاح من الجنوب.

فجأة كسر مجذافه وبدأ بالصراخ.

استيقظ «جمعة» بعيداً عن فرنسا وملذاتها التي كاد يتذوقها، لتصم آذانه صرخات «الغلام» الهيستيرية التي جالت في الفضاء المعتم للجحيم. صرخات تعبر عن هلع فظيع أو ألم مبرح أو هلوسة معتوه مرعبة.

سارع حارسان بزوي أسود إلى الزنزانة التي يصدر منها هذا العويل، مقابل زنزانة جمعة فتناهى لمسامعه شتائهم والضربات التي أنزلوها بالغلام. تلاشت صرخات الغلام رويداً رويداً، حيث كانت قوية حين انهاروا

عليه بالضرب والصفع والشتائم لتتحول لأنين يخفت ويخفت حتى يتلاشى ولم يعد يتسبب بالإزعاج لأحد .

مشهداً لا نهاية له اختبأ خلف مجموعة المساجين الذي يستندون على القضبان . أخيراً، خرج الحارسان من تلك الزنزانة . صرَّ قفل باب الزنزانة حيث تم إيقاف جمعة فأمسكوه من كنزته ودعّوه بين سجناء الزنزانة المقابلة نحو الغلام الذي انطوى على نفسه في إحدى الزوايا بغياب السجن، ونبحا يقولان:

«اعتني به! لو سمعنا صراخه سنقتلك أنت!»

استدار جمعة وألقى نظرةً على تلك الكومة الصغيرة المشوّهة بملابس ممزقة، تعلق ناظره بالسقف وفمه مفتوح قليلاً وعلى وجنتيه آثارٌ سوداء خلفتها يدها الوسختان حين مسح دموعه . لكن هذا لا ينبأ بالخطر بل يُحدِّق به في الطرف الآخر، بين هؤلاء السجناء الخمس عشر الذين يحملون به .

سرت الطمأنينة في نفس جمعة بعد أن تعرف على بعض الوجوه وألقى التحية على من يصادف عادةً في أزقة الحي العلوي مثل عبد الرحمن مهرب المسروقات وأحمد القوَّاد ومصطفى مهرب الإسمنت، إنهم شخصيات مرموقة بما يدفعون «رشوة» لرجال الشرطة ولكن يبدو أنهم شحوا بالدفع في الآونة الأخيرة .

هناك أيضاً سعيد رئيس عصابة أبناء الشوارع والذي كان ينتهك أعراض المنضمين إليه مهما كان عمرهم ويترك آثاره على جبينهم أو وجنتهم بالسكين . قيل أنه هَرَمَ وأصيب بمرضٍ عضال فأثر البقاء في السجن على أن يقع في شرِّ أعماله، هرباً من ضحاياه الذين قرروا الإجهاد عليه .

تضم المجموعة أيضاً شباناً قيل أنهم شرفاء بيد أنهم عاطلون عن العمل أو عبيد متمردون، تم توقيفهم ليكونوا عبرة لغيرهم . ألقى رجلان أو ثلاثة الريبة في قوَّاده، يبدو أن الإجرام حرفتهم فتوخى الحذر .

اقترب من الغلام المنطوي على نفسه، جلس بجواره، لمح وجهه الطفولي وعيناه اللتان تشفان عن جنونٍ، وأطرافه النحيلة. تثبت ملابسه الممزقة أنه غنيٌّ صغيرٌ يرتدي حسب «الموضة» فهو يرتدي قميصاً بأكمام طويلة رُسم عليها لاعِبٌ صغير يرتدي كنزة رياضية بلونٍ أزرق غامق وينطال جينز ذي خصرٍ منخفضٍ مع حزام ملاكمة أسود اللون وينتعل حذاء من ماركة «Nike» تمنى جمعة لو يستعيروه.

استغرب جمعة أنهم ما سرقوا منه شيئاً عدا ساعة اليد التي ربما لم يكن يرتديها بسبب صغر عمره.

قال مصطفى: - لا بد أنه مجنون، إنه ينتحب ويزعق بشكلٍ يستحيل النوم بوجوده، بيد أنه لم ينبس ببنت شفة، لعله أبكم. لم يتعرف عليه أحدٌ في الحي، يبدو من ملابسه أنه من خارج دار السلام فحذاءه يكلف ألف ليرة على الأقل. أرجح أن يكون من المعادي. قيل أنه اعتلى أحد أبنية شارع عباس - حلمي مصلح التلفزيونات، واقترب من الحافة كما لو أنه يريد الإلقاء بنفسه في الفراغ. لمحتة إحدى النسوة فصرخت حتى جمعت الحي وهرع رجال الشرطة إليه، فبدأ يرحمهم بالحجارة والآجر، وقد أصيب أحدهم، سلخ نصف جلد الرأس وسال دمه كالخاروف، أخيراً تمكنوا من القبض عليه، لم تكن بحوزته بطاقة هوية ولم يلفظ أي كلمة.

لمس جمعة جبين الغلام، لم يكن يعاني من الحرارة. حيث لا زالت عيناه تحدقان بالفراغ وأنفاسه قصيرةً لاهتة. حمله من إبطيه وسحبه نحوه واطعاً رأسه على فخذه ثم أغلق جفنيه. لم يبدِ الغلام بين يديه مقاومة استسلم له كما لو أنه فقد الوعي.

سرت بلبلةً في الممر، نهض كل السجناء، أدرك جمعة أنه وقت الشاي. ضائعٌ في الزمن، لا يدري كم استغرق نومه ولا توحى المصابيح الثلاثة المرهقة في القبو عن الوقت، ربما هي السادسة صباحاً، عادة ما يوزعون الشاي والخبز بهذه الساعة.

الشاي هنا عديم الشاي والسكر، والخبز قطعةً كرتونية ضاربةً للسواد، شرب العطشى الكأس دفعةً واحدة وكذلك فعل جمعة، تحرق شوقاً لكأسٍ آخر، للأسف ولّى الحراس أديارهم.

تردد جمعة بشرب كأس الغلام التي تلوح له مليئةً بالشاي، لا بد أنه كان ليفرغه دفعةً واحدةً، لو لم يذكره هذا الفتى المهجور الغاي في على فخذه بياسين الذي احتضر بين يديه.

أجل، لم يهب هذا الفتى حياته لا غتيال الظلم وما قاسمه يوماً ساعات البؤس والألم المضنية، لا بل إنه غني وأصابه الجنون لعله هاربٌ من الملجأ، إلا أن وجوده المتجرد عن الماديات وروحه السابحة بعيداً والتأهة في حدود اللانهاية تثير في نفسه تلك الشفقة التي غلّف بها ياسين.

خبأ الكأس خلف ظهره وانتظر أن يبرد بعض الشيء، ثم ساعد الصبي على النهوض وأسنده على كتفه ثم سكب رشفةً من الشاي الهارب من خمس عشرة رغبةً في فمه المفتوح قليلاً، لكن الصبي لم يبلع قطرةً واحدةً وسال الشاي على ذقنه ثم على رقبته ليضيع أسفاً في القطن الأزرق لقميصه.

يا له من إثمٍ فادح! شايٌ ينسكبُ هباءً في سجن يتلظى بظلم العيون. خطر لجمعة أن يبلل كسرة خبز ويدسّها في فمه، لكن الفتى لم يمضغها أيضاً وعيناه مفتوحتان جداً لكن يبدو أنه لا يرى الوجه المضطرب المنسي المنحني فوق رأسه.

بعد برهة من الزمن، لم يعد هذا الجسد يؤتي بأي حركة، لا يئن ولا يتأوه، احتل مكان ياسين. بدأت أنفاسه تزداد لهاثاً مصدرةً طنيناً غريباً.

حاول عبثاً أن يساعد الفتى على شرب القليل من الشاي المتبقي في الكأس وعندما يأس من المحاولة، ازدرد هو الرشقات الأخيرة ووضع الكأس جانباً، ما عاد بوسعه فعل شيء، ترك الصبي مسترخياً في أحضانه يزفر بعضاً من حياته في أنفاسه التي تحشرج المأ.

تملئ بعض السجناء معبرين عن استياءهم، سيدفعهم أنينه المثقل بالألم للجنون. تذكر جمعة وعيد الحراس. تردد لبعض الوقت وقبل أن يحول أنينه إلى عويل، أسند رأس الفتى الهامد على الأرض ونهض متوجهاً نحو القضبان ونادى الحراس، صرخ بأن الفتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ولا بد له من طبيب.

سارع أحد الرجال ذوي الزي الأسود، ما رآه مسبقاً، دخل الزنزانة وألقى نظرةً على الفتى ثم قال:

- حسناً، الزموا الصمت سننقله فوراً.

بضع لحظات مرت على مجيء أربعة حراس برفقة طبيبٍ حقيقي فحص الفتى فأمر بنقله إلى المستشفى على وجه السرعة.

ضمه أحد الحراس بين يديه بحنانٍ أمٍ، لعله كاد يقبله.. ثم غادر المنقذون الزنزانة، تاركين جمعة يغرق بأفكاره، قال في سره أنه قد أخطأ بتشبيه الفتى بياسين فهذا ابن رجلٍ ثري لا بد أن له صداقاتٍ متينةً مع جنرالاتٍ أو وزراء، ما زال للإنسانية متسعٌ في هذا الجحيم المرعب..

الذي وصم مصر في القرن الثالث والعشرين ضمن الإطار الدموي للعبة «Serious Sam3»، لم يكن ناتان يرغب بقتل سوى تلك الوحوش الضارية القادمة من كوكب «Mental»، لا هم له سوى رفع نتائجه، لينزلق رويداً رويداً في عنفه الخاص وهو يطلق النار عليهم أو يفجر رؤوسهم بهراوته الدائرة، متعةً قد تخلصه من الضيق والاضطراب الذي يهدد حياته بسبب الحب البائس لراف.

قرر ناتان ألا يستسلم أبداً لإلحاح راف الذي لا نهاية له والذي ازداد أكثر فأكثر، بعد ذهابهما معاً إلى المسبح عبر اتصالات ورسائل وإيميلات، ثم مشاركاته على صفحته على «الفييس بوك» والتي تلقي رموزها الريبة في النفوس وتزيد من حيرته، وأخيراً باللقاءات التي يفتعلها في ممرات المدرسة،

يبدو أنه أساء توجيه مهمة «جيش الكاميكا» الذين لا رؤوس لهم بأيادٍ تحولت لقنابل والذين يظهرون دونما انقطاع صارخين، وما إن يتم تفجيرهم حتى يعوضون بآخرين سريعاً، ينبثقون في شوارع القاهرة النائفة على أبدية الأهرامات.

عادةً ما يقذفه هذا النوع من الألعاب إلى عالم افتراضي يفوق بمتعته وأهميته هذا العالم حيث لا مكان له، لكن للأسف تمتد اليوم إليه أيادي الواقع المزعجة لترهق كاهله بتدخلها.

رأى راف بعيون أولئك «الكاميكا» الصارخين» ولعل هذا الصراخ الذي يُحسب له أن يُدب الرعب في قلب Sam قد يؤول لشكوى طفلٍ باكي. إلا أن ناتان رأى راف تحت نبال الرجال العقارب المتكاثرين في مصر الخيالية هذه، فكلما أبدى له الحب وخزه وخزة مميتة أو على الأقل كرهية يعاملهم Sam أعداءً له أما ناتان فلا يرى في راف عدواً بل تأخذه به شفقةٌ وخاصة بعد أن سمع شهقات البكاء تتسرب من حجرة المشالح.

لن يغفر له البتة الاضطراب الناتج عن عشقه ولا الألم الذي تمخض عنه شعورٌ قاتلٌ بالذنب. كم تمنى ناتان عندما يراه يقترب منه في ممرات «قاعة الميديا» بصدفة مفرجة أن يخفيه بقطعة بسيطة كالفأرة.

ما المقابل الذي يعاني من أجله من كل هذا اللوم والرجاء والذي يقف عاجزاً أمامها عن الإجابة أو لاجئاً لعبارات يتجنبه بها أو جملٍ مطلية بالكذب مثل «أعلم أن هذا صعب»، «لم يصلني الإيميل»، «لا أدري ماذا أقول لكنني لست حاضر الذهن الآن..» وغيرها من العبارات. في حين أن راف وطيلة تلك الفترة لم يكن يخفي معاناته ولا رسائله التي لا تحصد سوى الصمت، وبدأ القلق يكتف القصة أكثر فأكثر. لا سلاح يلوذ إليه ناتان في حياته الواقعية سوى التزام الصمت، ظناً منه أن الإحباط هو مصير إلحاحه الذي يفاقم من عذاب «راف» واتصالاته التي تزداد إزعاجاً.

لكن المصيبة الأكبر في التعليقات التي يتركها على صفحة ناتان على «الفييس بوك» على مرأى ومسمع الجميع، فيشهد كل الأصدقاء على يأسه .
عرض مقطع من فيديو « fade to black » لـ «Metallica» شارحاً لمن لا يتقن الانكليزية موضحاً النهاية الحتمية لما يكابد من ألم:
«فقدتُ طعم الحياة، لم يعد لدي ما أقدمه ولا أمل لي، لعل الموت يحررني...»

ثم عرض مقطعاً من فيديو « Gloomy Sunday » لـ «Gainsbourg» يقول فيه:

«سأفارق الحياة يوم أحد حيث كابدت الكثير، حين تعود سأكون قد غادرت، ستلمع الشموع الذائبة كأملٍ حارق، أما أنت، دون عناء، ستبقى عيناى مفتوحتين، لا تخف يا حبيبي، إن لم تريانك، فهي تقول لك أحبتك أكثر من حياتي..» ثم نشر كليب « No Surprise » لـ «Radiohead» حيث يبدو « Thom Yorke » على وشك الغارق في حوضٍ وهو يعني:

«لا إنذار لا مفاجآت صمت صمت، آخر نوبةٍ آخر عذاب، لا إنذار ولا مفاجآت.....» أو لعله غرق حقاً، كيف لنا أن نعرف لعل الماء قد انحسر بعد ان رسم ابتسامة السلام الذي لا يزول ليصطحبه إلى « fade to black » جديدة إلى ليلٍ ضبابيٍ حالك السواد .

كان راف ينشر ما ينشر على صفحة ناتان أثناء نومه فلا يكتشفها إلا بعد مضي عدة ساعات لا يجرؤ على حذفه، فالمشكلة لا تكمن بحذفه من الصفحة وإنما بحذفه من الواقع، وناتان لم يكن ينوي أبداً أن يتسبب بموته، بل إن هذه الفكرة أدخلت الرعب جليساً ثقيلاً في قلبه، رغم ذلك فهو يمتقن هذا النوع من المقايضة «إما أن تحبني أو أقتل نفسي، حياتي تتوقف عليك..» ليزيد على أسباب عذابه إحساس بالذنب .

تملكُ مانون القلق من تلك التعليقات التي يرسلها على صفحته الخاصة قارئةً بها تلميحاتٍ خطيرة، فأجابها ناتان «ممل»، لكنها لم تكن

توافقته الرأي فهي ترى في ذلك حيلة كريمة لإرغام ناتان على النزول عند رغبات راف. كانت مانون تتحدث والمكر يلف حديثها وكذلك القسوة فهي تعتبر أن هذا الهجوم يشبه محاولة اغتصاب. نصحته أن يهدد راف بتقديم «شكوى تحرش»، فطالما رأت في راف شخصاً غير متوازن مخادع يخلق القصص والفتن ليقوع بين الناس، ربما يشبه سلوكه كل الشاذين.

لم يصدق ناتان ما تقول مانون فقد سمع بكاءه إلا أنها تظن بأنها دموع التماسيح. تمنى لو أنها محقة ولو كان بحوزتها دليل لأجهز عليه ربما بوحشية و من دون قفازات حتى. ولكن كيف له أن يعرف؟
لم تلحظ مانون أمراً رغم أنه يبدو جلياً، فهي تظن أن راف يفسد حياته دون أن تدرك أن الحياة بالنسبة لناتان ليست حرة بالخراب، يجدر بها القول أن راف بلبل سير الأيام السلس وهز السأم المرافق لهدوئها، فأطلق العنان للحياة وسمومها المقيتة التي لا مفر منها، ملقية الألم أو المرض أو الموت. رغم أن أسوء ما في الوجود هو المواجهة، فكان لا بد من التخلص منه مهما كان الوضع.

طرح ناتان في إحدى الأمسيات مشكلته على المائدة دون الدخول بالتفاصيل، فاقترحت لوييز أن يحل الأمر بلطافته المعهودة عبر حوار مقنع يخبره من خلاله أنه حقاً يتمسك بالصدقة التي تجمعهما، مجرد صداقة. لا بد أن يعي أنه يحب مانون، أنه لا يميل للفتيان، كما أنه يأمل من كل قلبه أن يترعع في كنف سعادة متبادلة. فليسدي له النصيح بالتردد على مواقع الانترنت التي تدرس وضع المراهقين الشاذين وكومة من النصائح الأخرى باستشارة علماء النفس في بعض المجلات والذين لا يمنعون الانتحار أما والده فهو يرجح قطيعةً عنيفةً كالصدمة الكهربائية. أن يقول له: «فلتلقني بنفسك في البحر علّ هذا يغيرك.» فنانان يحب مانون جداً ومتعلقٌ بألعاب الفيديو المعتوهة ما عاد لديه المزيد من الوقت.

دار حوارٌ طويلٌ بين لويـز ووالده حول العنف وأول حزن يرافق الحب والمثلية لدى المراهقين والهرمونات وحقيقة الاستمناء. كما تطرقا «للفيس بوك» ومقارنة أعوام الثمانينات مع أيامنا هذه، وهكذا أفضى الحديث إلى أن يلتقي ناتان مع راف ويخبره وجهاً لوجه، بطريقةٍ أو بأخرى أنه تورط في ردي لا نور يلوح في النهاية باختصار «لا أمل» «no hope»، لا بد أن يلخص الوضع بأمرٍ واضحٍ وصريحٍ: انس!

ضرب ناتان موعداً مع راف عبر رسالة: «غدأ في تمام السادسة مساءً في حديقة رودان»، آثر راف «جزيرة سان جيرمان» بحداثتها الخلابة. لا بد أن حُبل إليه أنه يود لقاءه لتسكع شاعري يربطهما مجدداً على دروب ضيقة تغمرها زقزقة العصافير وأزهار الحقول.

لطالما كان راف ونزهاته محل سخرية بالنسبة لناتان وأصدقائه، حين كان يروي طواعيةً أنه يتزده حالمًا وحيداً في جنة عدن تغفو على ضفاف نهر السن، فيجلس على مقاعده المفضلة الغائبة تحت العرائش مثل النساء المسنّات اللواتي ينثرن بقايا الخبز طعاماً للعصافير.

قال ناتان في سره: إنه أسوء مكان يتحطم فيه الحلم المشربب في فؤاد عشيقه، ستكون كلماته في مسامع راف كليلية جليدية انبثقت على حين غرة على الرياض متعدد الألوان لتبدد عذوبته العطرة إلى الأبد.

إلا أن ناتان اطمأن لفكرة القطيعة في أحضان منظرٍ خيالي يسكن في جنة نباتية تعانق بوحشية ضفاف الماء، كزورق يهدر بأنغام غابة عذراء في قلب النهر. مشهدٌ كئيبٌ ضمن ديكورٍ مسرحي حيث يلوح اليأس والدموع كأوهامٍ مبعثرة.

التقى ناتان وراف على ضفاف نهر السن، عند رصيف محطة «ستالين غراد» ودخلا الحديقة عبر جسرٍ ضيقٍ بأجنحة حمراء تعبر الذراع الصغير للنهر.

بدا راف مثل «Justin Bieber» و«Marilyn Monroe» بنظارته السوداء

وخصلات شعره الشقراء التي تقلت من قبعة رداؤه الرمادي. كان يحمل أيضاً حقيبَةً على ظهره. تبعه ناتان، سارا في صمت حتى توسطت الجزيرة فاتجها غرباً بين الحدائق المغلقة وحدائق «ميسي كول»^(*) حتى وصلا حدائق خيالية.

يسير راف واثقاً في متاهة تلك الدروب المبلطة التي يبتلع نصفها العشب المجنون والأزهار المحيطة بالأشجار التي تتدلى منها الثمار، حول مستقعات الضفادع وخلايا النحل المقطرة عسلاً.

تعلو بعض صنارات الصيد السياج، هناك بعيداً على طول الضفة الغافية على الذراع الطويل لنهر السن، فتلوح بوجود غير مرئي في مثل هذه الساعة.

لا يرشح صخب المدينة إلى هذه الغابة المقنطرة المتراقصة بلحنٍ مرتجف تعزفه ريح المساء اللطيفة في أوركسترا من حفيف السرخس وأوراق الشجر تتخلله زقزقة العصافير وطين النحل.

خاف ناتان تلك النحلات لدرجة أنه ود الهرب بأقصى سرعة لكن راف طمأنه قائلاً أن النحل لا يلدغ أبداً وسط هذه الأزهار التي تلعق مؤنثها. كما أضاف أن ذكور النحل غير مؤذنين وأن إناثها فقط من تلسع بإبرها لتحقن سمها في الجسد ثم تستحق بعد ذلك عقوبة الموت.

وجد ناتان نفسه برفقة راف وسط غزارة خيالية لتلك الحدائق العجيبة، بأحضان فواحة لخلايا حية متكاثرة ولعلها عدوانية تعانق سرداق خشبي حُضِر فيه مقعدان متقابلان من جذوع أشجار الصنوبر، بالكاد تتخلل أنامل الضياء في هذا الوعاء الفخاري، ليرخي ظلاً رطباً صاخباً يوحي بوجود قروود أو حيوانات متوحشة.

اتخذ كل منهما له مكاناً على أحد مقاعد هذا الكوخ الذي أعاده لذكري كوخ الأطفال المشيد على أشجار حديقة رودان.

(*) حدائق ميسيكول: حدائق مليئة بأنواع من الأزهار الغريبة في باريس.

ما عادت الغابة تلقي بظلال الخوف في قلب ناتان ولا حتى تلك الكلمات التي حضرها ليطلقها وجهاً لوجه مع هذا المزعج راف فيلغيه تماماً من حياته ويتخلص منه أخيراً، فبدأ حوار الصغير:

- راف، رغبت بلقائك لأخبرك أنني...

قاطع راف: - صه! أعرف ما تريد أن تقول، إن وجودي يثقل عليك وأن لا جدوى من إلحاحي الشديد وأنتك تحب الفتيات. صدقتي ما قابلتك لاستمع لمثل هذا الهراء. أردت أن تكتشف هذه الحديقة أو بالأحرى هذه الجنة التي تشلنا للحظات من العالم.

فتح حقيبة ظهره وأخرج زجاجة صفراء ضاربة للبرتقالي ثم جلس بجواره قائلاً:

- أحضرت شامبانيا ..

ذاك اللون الأصفر الضارب للبرتقالي ما كان سوى الغمد المطاطي الذي يحفظ رطوبة الزجاجات.

أجاب ناتان راسماً ابتسامة عريضةً كما لو أنه يستمتع برفض هدية هذا المزعج:

- يالسوء الحظ! أنا أكره الشامبانيا .

- اعرف ذلك فقد أخبرتني سابقاً ولكن هذا المشروب مميّزٌ جداً، فهذا «clicquot veuve» والحقيقة أنني غافلت والدي وسرقتة. ليس كالشامبانيا التي تعرف إنها شامبانيا «بقبلة فرنسية» تترك في الفم لذّة فيها شيء من الجفاف لا الفظاظة.

أضف وهو يفتح الغمد:

- لا أرى بهذه الحياة سوى الفظاظة فيما بياض ناصع أو سوادٌ حالِكٌ، لا تدرجاتٌ ولا حتى تناغمٌ سريٌّ ولعل المظاهر التي طالما ظننا أنها مثيرةٌ للاشمئزاز تكشف عن متعٍ ساحرةٍ.

أدرك ناتان إلام يرمي بالقول لكنه استساغ التشبيه رغم ما يضم من
إزعاج.

فك راف شريط السدادة ثم فتح الزجاجة لتدفع الرغبة شلالاً
ينسكب عند أرجلها على البلاط الحجري. مدَّ راف لناتان الزجاجة قائلاً:
- تذوق هذا، ليس معي كؤوس فلتحتسي من الزجاجة نفسها .
داعب سائل عذبٌ وحلوٌ بطعم الفاكهة الحليمات الذوقية في فم
ناتان، رشف ثلاثة كؤوس دهاق، فهذا لا يشبه في طعمه أبداً تلك
الشامبانيا التي يعرف.

مرر الزجاجة لراف الذي حذا حذوه وأعادها له مجدداً وسأله:
- ماذا إذا؟

- آه راف! لقد راقت لي هذه الشامبانيا، أخشى أن تفرغ الزجاجة.
- لا بل أنا واثقٌ من ذلك. أتدري، يقول والدي أن هذه الزجاجة من
أجل جدتي، فطعمها حلو المذاق يروق للفتيات. يا له من أحمق!
سرت في جسد ناتان حرارةٌ غريبةٌ ودغدغةٌ داعبت رأسه بشعورٍ
لطيفٍ وناعمٍ كالتشعريرة، تابع الشرب محتسباً السائل العذب من الزجاجة.
نزع راف قبعته فعكس اللون البلاتيني لشعره الحريري ما تبقى من
نور النهار. تساءل ناتان في سره ما الذي يجعله يتأمل هذا الانعكاس، لا بد
أنه تمل، فمرر الزجاجة لراف، ملقياً اللوم على نفسه أن أطلق العنان لنفسه
لتأخذه هذه السينما عوضاً أن يقول له ما حضر وأن يجتث السوء من حياته.
- راف...

بحبش راف في حقيبته عن شيء آخر يرافق الحفل، بعض المشمش
والفاكهة وقال:

- غسلتها الواحدة تلو الأخرى فأنا أعرفك حق المعرفة.
تقاسما الفاكهة وسال عصيرها الكثيف ممتزجاً بفقاعات
الشامبانيا. لم يطرق ذاكرة ناتان طعمٌ يفوق هذه اللذة، علاوة على ذلك

أحاسيس فياضة خارج فمه، إحساسٌ يدفعه ليضمَّ أشجار الغابة كعريشة خضراء ويذوب لذَّةً في عطور الفانيليا والياسمين والميموزا.
يا للغرابة! كما لو أنه يعيش حلماً هندياً. أجل لا بد أنه في حلم، لقد استعذب حرارة ذراع راف يلتف حول كتفيه وأنفاس لهاثة الدافئ ذو طعم الثمر وتلك الرطوبة لشفتيه اللتين أطبقنا عليه بمذاقهما الحلو كالعسل الممزوج بالمشمش لا بد أنه يحلم...

فالضجيج القادم من الشوارع، لابل تلك الكلمات التي تتردد من حوله لا يمكن أن تكون حقيقية. تتضرع الأصوات للرحمن الرحيم، تتحدث عن المظاهرات والثورة. مَيِّز من هذه الأصوات الثائرة، صوت عبد الرحمن وأحمد ومصطفى. فتح عينيه بخمولٍ استحوذ عليه بعد نوم عميقٍ دام لأكثر من 24 ساعة خلال ليلة الخميس، تفصلها لحظات بلادةٍ ترافق التفكير بياسين ووجبة هزيلةٍ وغفوةٍ في الظل.

صحح من جلسته على الأرض الإسمنتية واتكأ على الجدار ظمآنًا. استدار جانباً فكان إلى جواره شابٌ آخر رآه مرةً يمشي في سوق «شارع أبو طالب» على مقربةٍ من المترو، سأله عن الساعة، لعلها الساعة الثانية بعد الظهر. لم يسمع جمعة تكبير المؤذن لصلاة الجمعة في السجن.

إنه يميز الآن زمجرة حشدٍ غفير، إن الصوت أت من الشارع: «ارحل أيها الضابط! افتحوا الأبواب! شرطة حسني! شرطة فاسدة!» ظن جمعة أن الأرض تدور بالعكس. هذه ثورةٌ حقيقية! اجتمع كل المعذبين وضحايا الإهانة والابتزاز أمام فرع التحقيق لمحاربة المخبرين. لو تغلبوا عليهم لغدا لهم عالمٌ جديدٌ.

قُبِض على الشاب الذي يجلس بجواره خلال الليلة الماضية ورُمي في السجن. قال له كما أنه يلقي قصيدةً حماسيةً بأن هذا «اليوم شديد الحماس هو «جمعة الغضب» وأن ملايين الثائرين وطئوا الشوارع مدججين

بالشجاعة. وأن الإسفلت تحت أقدام هذه الجحافل سيغدو جمرًا وسينبثق اللهب من قلوبهم كالرماح فتلتهب مصر ناراً تطهرها من أعمال المجرمين والمخربين المشينة، حتى الأهرامات ستنتفض وتخلع ملك القذارة عن عرشه كفاكهة عفنة عن غصنها. واللّه على ما أقول شهيد.

فجأة، طفت الطقطقة المصّمة لقاذفة القنابل المسيلة للدموع على جلبه الجموع الغاضبة لبضع لحظات ثم انبثقت من جديد بحماس أكبر دفع السجناء للوقوف وتكرار الشعارات بجوقة تبتُّ الفرحة في أرجاء السجن الذي ما عرف الفرحة يوماً. لم يدم الفرحة طويلاً!

دوت الطلقات الأولى لأسلحة أوتوماتيكية، يقتل الرجال ذوو الزي الأسود المتظاهرين، من داخل المبنى متوارين خلف النوافذ ربما يدوي صدى الانفجارات في القبو. ساد صمتٌ ذعرٌ بعد الرشقات الأولى وهيمنت فكرة أن تشتت الجموع حاملةً الجثامين.

نال الإحباط من بعض السجناء، أمسك مصطفى رأسه بين يديه، وآخر توقع أن يغادر المتظاهرون أو يلقون حتفهم عندها سيهتم الحراس بأمرهم. أما الشاعر المهووس بالجمر واللهب، فقد عبر عن استعداده للموت شهيداً. لم يكن جمعة مستعداً لذلك أبداً، فهو يظن أنه سيتحاشى الطلقات متوارياً خلف جثامين الشهداء. إنه يرغب بالحياة بل يرغب بالخروج من هذا الجحيم واستنشاق عبق النيل، قبل أن يذهب ويجلس عند رأس ياسين ويخبره بأن المصريين يلقون مصرعهم بالمئات بطلقات الغدر، لكن مصر الولود ترسل غيرهم وغيرهم، الحرب لن تحط رحالها والفوز حتماً من نصيبهم.

أطفأت المصابيح الثلاثة في الممر وغار السجن في عتمة حالكة أعمت بصائرهم. بدأ الجميع يهمسون كما في غرفة يخلد فيها الأطفال للنوم. بحثوا عبثاً عن ما يلقي بصيص نور كولاعة أو عود ثقاب ولكن كلاب السجن أفرغوا جيوبهم بعناية من كل ما يمكن سرقة.

ترى هل يغمض عينيه أم لا في هذه العتمة الحالكة. ركب جنح الخيال فرحاً بشمس كانون الثاني اللطيفة التي تُبجّل ألوان الفاكهة والأقمشة المترامية في أسواق دار السلام، وتسبّح بجمال أزهار النيل وحجاب فاطمة أخت عزيز وعينيها، تستحي من سحب الدم المتدفق على الأرض أمام قسم التحقيق.

أطبق الظلام الدامس على هذا القبو كأغلال لا مفتاح لها وعجزت أعينهم عن اقتحامه، فاستسلموا له، لا حيلة لهم في مواجهة ليل هذا القبر حيث ينشر الموت القادم الرعب ولا يعد بالجنة.

امتزج الخوف بغياهب القبر وصار محسوساً، هنا يمكنك لمس الخوف كمادة واضحة، الخوف من الخطر الذي قد ينقض في أي لحظة، لا أحد يدري من أين ولا متى ولا كيف.

ما يزيد الأمر سوءاً أن العفونة التي طوتها العادة مع النسيان استيقظت من جديد، لتمتزج رائحة البول والقذارة مع جزيئات الغاز المسيل للدموع المتسربة فتنتشر رائحةً أسيدية حارة.

تضخمت الأصوات: أنفاس الجيران، همهمات المساجين وسعال المسلول حتى نباح الكلب في الخارج ثم عاد الهياج مجدداً أمام فرع التحقيق مع صخب هائل للشعارات التي عادت من جديد. فجأة طقطق زجاجٌ قد تفجر تلاها طقطقة مصممة للأسلحة الأوتوماتيكية، صرخات ثم زجاج آخر قد تشظى، نهض الجميع في ليل هذا الجحيم الحالك، انضموا لبعضهم، تلامسوا، أمسكوا بأيدي بعضهم البعض حتى يحافظوا على توازنهم وسط هذه البلبلة المصممة المذهلة، إنهم يشعرون بكل اهتزاز لملايين الأصوات في الخارج التي تكبر الله. ميمز جمعة من بين هذه الأصوات: يا رجال الشرطة، سنتخلص منكم! فردوا عليهم برشقتي رصاص، ثم سمع من داخل المبنى: لقد عادوا، إن عددهم هائل! تحطّم زجاجٌ ثالث، انهال وابلٌ من الحجارة بطقطقة جديدة على الأثاث وعلى الأرضية فوق رؤوسهم تماماً، رافقتها

ضرباتٌ متتالية كما لو أن كبشاً يصطدمُ ببوابة حديدية ثم أعيرة نارية أخرى، صرخ الحراس بذكر: «بسرعة! بسرعة! من هنا! علينا الرحيل! علينا الرحيل!»، ضربة أخرى على البوابة، وسع الفضاء جلبةً هائلة لكان الأرض بأرجائها عبرت عن هياجها وفرحها، اقتحمت الحشود الشائرة الجحيم الذي لم يعد جحيماً، قلبوا الأثاث وكسروا باب القبو، كدق من أشعة الشمس دلف ليبدد سواد هذا القبر بالنور الساطع للنهار وفاض حشد الثائرين كالأمواج، فأمسك بهم السجناء وشدوهم ليقبلوا أيديهم عبر القضبان.

صرخ أحدهم: *المفاتيح! اعثروا على المفاتيح!*

تردد النداء من فيه لآخر وارتقى الأدرج، في هذه الأثناء، عانق جمعة كل من رافقه في الزنزانة، الواحد تلو الآخر حتى المثيرين للقلق الذين لا يعرفهم، سيشمل العفو الجميع حتى من ذبح طاعناً بالسنن أو من كان مخبراً، التهم الحماس الملتهب للخلاص كل الخوف وكل الأخطاء. أخيراً، لاحت المفاتيح وفتحت الأبواب الموصدة. قال أحدهم ذو الصوت الأقوى: *اخرجوا الجرحى والمرضى أولاً!*

ثم تلاهم الأصحاء ومنهم جمعة الذي كان بوزنٍ خفيف يسهل عليهم حمله على الأكف وتمريره من يدٍ ليد كغنيمةٍ لنصرهم، حملوه عبر الأدرج حتى عتبة باب فرع التحقيق حيث بدا الحشد الهائل بانتظاره، بانتظار جمعة ابن المزابل، ليباركوه في وضع النهار كفرعونٍ حقيقي.

توافد الآلاف في جمعة الغضب، قادمين من الحي العلوي لدار السلام وكذلك من الحي السفلي، تخطوا كل الحواجز لينقضوا على جحيم الرجال ذوي الزي الأسود فيقتلعوا هذا الطاعون الذي فتك بالأرواح منذ عشرات السنين. ها هم يجازفون بحياتهم ليتخلصوا منهم.

اجتمع الجميع صعاليك الأزقة النتنة وطلاب عين شمس أو الأزهر، الموظفون أرباب الأسر، أمناء السر وطلاب المدارس، العاطلين عن العمل

والسائقين وحتى الباعة المتجولين، اجتمعت اللحي البيضاء مع أطفالٍ بمقتبل العمر. الكل منزوع السلاح لا بل مستعدين للاستشهاد تحت الرصاص. كما تخيل جمعة ها هي برك الدم بسحبٍ بنية اللون تلتخ الطرقات حيث تدهس الجموع.

لم يكن عدد القتلى بالرصاص محصوراً بعد، البعض يقول عشرة والبعض الآخر يقول عشرين. لاحقاً تكشف للجميع أن أربعة وعشرين متظاهراً قد لاقوا مصرعهم برصاص في معركة «فرع تحقيق دار السلام»، حتى كشف عن وجوههم وأعلنت أسماءهم: إسلام إبراهيم، علي نبيل عبد السماح، أحمد سمير، منصور فتحي،... تعرف جمعة على أحدهم غلامٌ ذو ثمانية عشر عاماً، اسمه محمد عبد الله، كان يصادفه بين الفينة والأخرى عند مصطفى لحلاقة شعره وذقنه. كم كان يفتخر بهوى الفتيات اللواتي يهمن بعينييه الخضراويين وتلك النظرة الناعمة الكئيبة.

خوي فرع التحقيق من الرجال ذوي الزي الأسود اللذين فرّوا هاربين ذعراً، فاندفعت الجماهير لتدمر كل شيء وينقلون بفرح الأثاث ضمن مجموعات تتالي دون نهاية حاملين الكراسي والخزائن وكل الأثاث المتواجد، ليعثر عليه لا محالة يوم الجمعة القادم في «سوق البراغيث» في مدينة الموتى. استحوذ بعض اللصوص من عصابات المخدرات على الأسلحة والذخيرة أما الطلاب المتطرفون فوضعوا أيديهم على الأرشيف.

بلحظات فقط نظفت النملات الحاملات الوكر الجهنمي لمصاصي الدماء عن بكرة أبيه، نسيت النملات أن مصاصي الدماء خلفوا وخماً من وسخ الإوز ليبقى جرحاً مفتوحاً بتقيح آلاف الذكريات المرعبة، رمزاً لا يطاق لحكم الجلاد.

رأى جمعة بضعة رجال يدخلون حاملين صفائح من المحروقات وشاعت كلمة بنزين بين الجموع. لاقى جحيم دار السلام مصرعه أخيراً بألسنة اللهب، وسط أمواجٍ من الابتهاج تهلتت لصورة الشر الذي حُذف إلى

أبد وتهللت لهذه الصورة جموعٌ هائلةٌ في القاهرة والإسكندرية والسويس
والمنصورة وكل أرجاء مصر.

دُهل جمعة أنه ما زال على قيد الحياة وأنه ينعم بالحرية، لعل كل ما
كابد من شرٍ وألمٍ وجوعٍ منذ رحيل والده قد اضمحل...

في حريقٍ شهواني لحلمٍ هندي، تبطل ملامسة الموت هذا الشعور
المضني بالفراغ ويخفف من وطأة الملل والأعمال الشاقة التافهة و أولها
الاستيقاظ صباح كل يوم. إلا أن مانون لا تسأم من تكرار أن كثرة ملامسة
الموت سيجعله بالنسبة إليه أمراً مألوفاً لدرجة أن يتخطى خوفه فيستسلم
له.

أرسلت له مانون روابط لمواقع تعرض أمهاتٍ محزونيات يروين
مأساتهن بأن عشرين على أبنائهن ذوي ثلاثة عشر عاماً، وقد لاقوا
مصارعهم مخنوقين في غرفهم بأحزمة أو أوشحة، بعد أن تعلقوا بالأسقف
الانصفية، وهن لا يعرفن هل أرادوا الموت أو مجرد اللعب. فهذا ليس مجرد
لعبة ولا ميةً عادية: لقد آثروا ترك هذا العالم لسبب أو لآخر دون أن
يعلموا إلى أين يوذي بهم هذا الانطلاق.

لم يعد ناتان يرغب لا بالحياة ولا بالموت، لا يميل بشدة إلا لعالم
الأحلام المتبدل حيث تتألق الأحاسيس بمهرجانٍ غريب. يفضل ألا يحيا ولا
يموت، فللموت تبعاته التي يمقتها بدءاً بالألم يُفجع الآخرين والجسد الذي
تلتهمه الدوبيات آكلات الجيف، ناهيك عن الليل الأبدى خالي من الأحلام.
كما أنه قرر أن يأخذ احتياطاته لئلا يرزح تحت الآلام التي كابدها تلك
الأمهات.

في كل مرةٍ، يُقدم وحده على «الحلم الهندي»، يخال أنه ريانٌ
يتحقق من قائمة الفحص، فيدقق على طول الوشاح ويتأكد من ضبط
منبه I.phone. كان يدرك أنه ليس في منأى عن حادث لكن احتمال

حدوثه أضعف من أن يحرم نفس متعته الوحيدة بما تعده من أعاجيب
تزهو بانعدام الجاذبية المرافق للحلم الهندي فتمحي الشك الضئيل لهذا
المرح.

منذ ذلك الحين وناتان يلقي نفسه لهذه الوعود عدة مرات باليوم
ففي كل تحليق نحو عالم الابتهاج ينسى ما سبق فهو لا يسجل ما يراوده
من أعاجيب. رغم أن بعض الصور تستمر قوية بما يكفي لئلا تُمحي من
ذاكرته لكنها تقلت من السياق المتهافت للحلم. فما زال ذاك الحلم يطرق
مخيلته حين رأى مطراً من ألقِ ينور قاعة الصف، خلال درس الرياضيات
في حين فرّ التصميم البياني لمتباينة جبرية من اللوح وحلّق كفراشة في ليلةٍ
مرصعة بالنجوم.

تتسع المسافة بينه وبين مانون وكل شيء حوله يرهق كاهله أكثر من
المتباينات الجبرية إلى المسيحية القروسطية ليأتي إلحاح مانون المتزايد
الذي سئمه ناتان وسئم تحرياتها عن آثار اختناق حول رقبتة متسائلة عن
سر إقفاله للجوال. تضنيه بكثرة سؤالها عن غيابه عن صفحته على
«الفيس بوك» وكيف يقضي أوقات فراغه وبالْحَقِيقَة فهي تجده أقل تجلياً
بالحب وبشكل واضح، كم تمنى ناتان لو بوسعه أن يشرح لها أن المادية
الوحيدة التي يتقبلها هو ثقل جسده المعلق بالقضيب، ما تسعى جاهدة
ليفارقه. تمنى لو أنها تمد له يد العون، لكن على العكس تماماً إنها تتعد
عنه أكثر فأكثر، حتى راق له أن يرتعد بين يديه بقايا ذكرى تلك الفتاة ذات
الشعر الأحمر عوضاً عن جسد مانون الدافئ. تساءل في سره عن السبب
ربما لأنها ظهرت ثم غابت، كشعلة التهمها كلور المسبح. غادرت لم تترك
وراءها لا اسماً ولا صوتاً ولا حقيقة سوى بقايا صور حملها في ذاكرته
بجوار ملامسة لعلها غير إرادية ليده. وهكذا اكتفى لبعض من الزمن بهذه
المتعة الغير مادية التي تحرضها ذاكرته وحيداً تحت دفق ماء الدوش
المنسكب على جسده. كان يظن أن ذكرى تلك الفتاة وأحلامه المرتبطة بها

خيرٌ من ثقل جسدها ووطأة كلامها في الحياة الحقيقية. رغم ذلك، شيءٌ غامضٌ يحرقه شوقاً لأن تتجسد هذه الفتاة مجدداً أمام ناظريه لا يفصلهما سوى بضعة أمتار فيتذوق طعم المغامرة. لعل هذا الشيء الغامض هو حادثة «جزيرة سان جيرمان» والطريقة التي غافله بها راف ووصل لمراده أو كاد يفعل.

إلى أي حدٍ كان مكر الكحول هو الدافع لتلك المتعة التي تلذذ بها للحظة فقط، لعل الشامبانيا وسَّعت طيف المتعة أو سلمته مفتاح الباب حيث تفلت رغبات مجهولة؟ رجح ناتان فكرة أن طيف المتعة قد زاد اتساعاً، فهو ما أحب الشخص، لكنه أحب شراهة تلك الأحاسيس التي تملَّكته، تلك الحرارة في رطوبة المساء، الماء المتدفق على شفثيه والنعومة التي لامست لسانه. أُصيب بالاشمئزاز حين تذكر، بزوال الشمالية، أن تلك المشاعر أتته من راف لكنه ارتجف لفكرة أننا بزوال الشمالية أي بحالة الوعي المطلق تحت سيطرة الذات لا نستخدم سوى جزءٍ يسيراً من الغنى الساكن في أذهاننا تمثله الحقيقة بشكلٍ ضعيفٍ. ومع ذلك ولأجل المفارقة فهو يقدر متعته بالهروب الذهني أما فيما يتعلق بالرغبات فهذا يورطه بالتزامات جسدية مرهقة ولكن إذا ما اعتمد على رزانة الواقع فهو لا يميل إلا للفتيات باستثناء تلك الأمسية المنفصلة عن العالم والتي كان فيها ضحيةً لعملية إغراءٍ مخادعةٍ براقّة.

رغب بقاء تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر والعينين الخضراوين ليبيد غموض ذلك الاضطراب الذي اعتراه. أثقلت مانون كاهله بحبها الجلي للعيان وقلقتها الذي لا تتحفظ بإظهاره، طوت بحفيظة الأم الثائرة وعتابها تلك السلاسة والعذوبة التي تتطلبها رغبته وتلك الشفافية التي تسبح بها الروح ظمآنَةً لماء رقرق يغلّفك ويحميك، يحبك دون أن يرهق كاهلك. تتوق الروح لما يتغمد الذهن برقّة فيلاقي متعةً لا يشوبها أي عائق ولا تصطدم بأي خشونة. لا يرفرف الحب دون جناحين يحملان

الجسد لكمال فقدته منذ زمن بعيد، منذ الولادة، لعله يتوارى أحياناً لكنه جاهزٌ دائماً ليتدفق، أمل أن يلاقيه بين يدي الفتاة السباحة ذات المايو الأبيض التي تختال برشاقتها وخفة حركتها أثناء السباحة حتى حين ارتقت سلم حوض السباحة. يوحي ذلك الجسد لبني اللون المبتل بأنه طيفٌ لا مادية فيه. حرّض حضورها المتلاشي رغبات هائلة عابرة كالحلم.

ظل أسير حلمه بأن يعثر عليها مجدداً، قصد بعد أسبوع تماماً المسبح، يوم أربعاء في تمام الثالثة مساءً. تخيل أن ترقص حورية الماء البالية مجدداً وترتقي السلم بوثبة واحدة ثم تتجول حتى تحملها خطاها لتجلس إلى جواره فتتلامس أيديهما صدفة!

لن يكون راف المزعج هنا. سيكون وحيداً، عندها سيترك يده تعانق يدها، ويسألها إن كانت تتردد غالباً إلى هنا من أجل السباحة كالسمكة. يا للهول! ليست هنا! هرع بعد المشالغ، وجال بناظريه الحوض، ليست هنا!

قطع المسبح مرتين بسباحة البطن، ولم تأت بعد! غاص مجدداً وقطع الحوض مرتين، تجاذب أطراف الحديث مع فتية من مدرسته بالكاد يعرفهم، راغباً بدفع عقارب الساعة حتى وصولها. خاب أمله، عاد إلى المشالغ ثم إلى المنزل ثم إلى خزانة الثياب التي خلعت عنها هذا الاسم ليصبح مشنقة، راغباً بالنسيان، نسيان «إغواء الجزيرة» و«الفتاة الهاربة». يلوذ بالحلم الهندي هارباً من الملل الذي يفترس أيامه وما يكابد من ضيق يلقيه الآخرون في طريقه، لا شيء في هذه الحياة يساعد على النسيان، لا شيء أبداً.

قال في سره، ذلك اليوم، حين حط قدميه على الأرض، أن أمله ضئيل بالعثور على الفتاة ذات المايو الأبيض، أو لعله لن يعثر عليها أبداً فليس بحوزته من دليل يرشده إليها سوى هذا المسبح الذي لا تتردد

عليها كثيراً على ما يبدو. لن يتمكن من التردد على المسبح كل يوم ما بين حلمين أو درسين ولا أن يحتل روائح الكلور وسط صخب الصبية، لاهتاً وراء أمل مجنونٍ بالعثور صدفة على حورية الماء. سيكتفي بأيام الأربعاء، عندها ربما تتالى السباحة والرقص أو المسبح والخيار اللاتيني مع آلاف النشاطات الأخرى المحتملة، ولكن الأربعاء القادم سيكون في «الأقصر» والأربعاء التالي في «القاهرة». إذاً لن يراهن على حظه الأول قبل ثلاثة أسابيع.

لن ينسى راف أيضاً الذي كان له الفضل بإقناع ناتان بالضرر الذي يرافق نشوة الكحوليات إذا ما قورن ببهجة الحلم الهندي. فالمشروبات الروحية مخادعة تحقن ضررها في ملامستها للواقع وجعله مقبولاً لا بل مغرياً، هذه المشروبات السحرية التي تجمع بين الأعشاب المؤذية والفضلات تأسر ما ينتابنا من حزنٍ وألم وتطلق العنان لأوهام الهناء والحبور، تلقي النور على مساحات الظلام التي ترتعد لها فرائضنا، فهي حقاً ليست مخادعةً وحسب وإنما مؤذية إذ تُفسد الجسد وتحيله سقيماً وتفتح بوابات الوجدان الأحمق على مصراعيها لتلقيك في واقعٍ لا حدود لتفاهته لا بل في واقعٍ منفرٍ حقاً، لتغرق في أعماق الخيانة والخضوع وتصافح السيئات.

آثر ناتان دائماً الاستسلام لقناطر الحلم الهندي بالعوالم الجديدة التي يقتحمها وما أقدم على مبادلة هذا المجون بالآخر. للأسف، غرق راف بالمجون الأسوأ. بعد «حادثة الجزيرة»، أخبره ناتان جهارة في اليوم التالي أنه لم يعد يرغب لا برؤيته ولا بسماع صوته ولا حديثاً عنه، كما حذفه من قائمة جواله ومن صفحته على «الفايس بوك» ورمى إيميلاته في سلة المحذوفات.

لم يعد راف يلح ولا يخلق صدفة لقاته في ممرات المدرسة، ثم أخبره نيكولا أن راف غرق بالمشروب لثلاثة أيام متتالية، منذ بزوغ الفجر حتى سكون الليل، كان ثملاً في الدروس، يحتسي من مطرته بين الحمص لا

الشامبانيا فحسب وإنما «رافينسبورغ» «كوكتيل من جت 27 والبيرة ومارتيني بلاك».

يفغزو في المقعد الأخير في الصف مما أجبر الإدارة على طرده لمدة ثلاثة أيام، ومنذ ذلك اليوم لم يره أحد. تساءل ناتان في سره، أليس في هذا التمل المفرط نداءً للمساعدة: مهما يكن لن يتجاوب معه، لم يعد يريد حبه. تخلّص من راف وانفصل عن مانون وتولع بشرارة غائبة، إنه الآن وقبل رحلته المضنية إلى مصر حرٌّ من كل القيود، حرٌّ بأن يحلم...

بأن كل شيء سيتغير، سيحب أخيراً هذا العالم حيث ترعرع، تحدث الألوان التي ألقاه حريق فرع التحقيق ألوان الشمس الغائبة المبعثرة في الأفق وراء النيل، لكن لا وقت أمام جمعة ليطمئن عليه أن يقصد المستشفى حيث طلبت منه السيدة هناك أن يعود ليستعلم عن ياسين.

يداعبه أمل أن يسرد على مسامعه حكاية المعركة والحريق، لم يعد الوقت مناسباً ليجت عن رجب وحسان في الفوضى التي غرقت بها دار السلام الثائرة.

قصد الكورنيش راكضاً ثم تعلق بدرجة بالباص كالليلة الفاتنة ثم أفلت مُحلقاً أمام مستشفى «قصر العيني»، سارع إلى الباب المتحرك ليجد نفسه أمام قاعةٍ من الآلام المُقلقة التي كسرت الروتين بهياج جنوني. تتخبط القاعة بجموعٍ هائلة ملتصقة بمكتب الاستقبال، تتعالى أصوات عائلات بأكملها.

تصرخ زوجاتٌ وأمّهاتٌ بأسماءٍ ويلوحن بأوراق بحثاً عن الأخبار. تلاها رقصة باليه لنقالة المرضى والتخبط العشوائي للممرضين في الممرات لنقل رجل دخل للتو يقطر دماً والشحوب في وجهه ينبئ بموته. قال جمعة في سره لا بد أن جمعة الغضب المتوجة بالنيران قد حصدت أرواحاً عديدة لا في دار السلام وحسب وإنما في أرجاء مصر.

حافظت السيدة البدينة ذات الرداء الأبيض على هدوئها فلم ترفع صوتها ولم تسرع حركتها أمام هذا الوابل من الاستعلام عن هذا أو ذاك المتظاهر الجريح أو المتوفى والذي تم اصطحابه إلى هنا حسب ما قال هذا أو ذاك الشاهد، في فيض من الالتماسات المحزونة والمطالبات العنيفة، اكتفت بتسجيل الملاحظات وتفحص السجلات لتجيب دائماً تقريباً أن الأسماء لم يتم تسجيلها ولم يتسن لهم كما هو معتاد تدوين أسماء العدد الهائل من الجرحى في حالات خطيرة، لذا عليهم التحلي بالصبر والانتظار بل يفضل الجلوس ريثما يتم الإعلان عن قائمة بالأسماء.

توجس جمعة خيفةً من تخطي جمع المعذبين إلى تلك الملكة الرصينة، كان يقول ليُفسح له المجال، أنه قد مضى يومان على حمله لمحتضرٍ إلى هنا وأن له الأولوية بالسؤال.

بالكاد أقلت عليه الملكة بنظرة، إلا أنها تعرفت عليه وعادت بسجلها عشر صفحات على الأقل، تتفحص كل واحدة منها من الأعلى إلى الأسفل بقلمها وهي تكرر: «جمعة العليبي.. جمعة العليبي... جمعة العليبي» حتى وجدته أخيراً، ترددت قليلاً ثم أمسكت الهاتف وسمعتها تقول: «أمامي جمعة العليبي مرافق الفتى الذي لا اسم له القادم ليلة أمس».

تلاه صمتٌ طويل، كانت تصغي خلاله لشخصٍ لم يفهم جمعة من كلامه شيئاً، أغلقت السماعه وسجلت شيئاً ما على سجلها ثم على ورقة صغيرة مطبوعة ثم أمهرتها بالخاتم قبل أن تسلمها لجمعة. أشارت له إلى المصعد في آخر القاعة وقالت: دع صبي المقعد يرى الورقة واحتفظ بها.

توجب عليه الانتظار مع الناس أمام المصعد وأخذ يتأمل مرافقيه: عائلات مع رضع ينوحون، رجلٌ عجوز بلباس النوم، تعلق بيده أنبوبٌ يرتفع إلى كيسٍ صغير مليء بالسائل ومعلقٌ بعضاً ذات دواليب، ومجدان بالشرطة يبدو أنهما يخفیان هيئة الفلاحين الأحمقين.

قال في سرّه: «لعلي الوحيد الذي لم يرَ مصعداً في حياته، لا أدري السرعة التي سيقدفني بها إلى السماء».

ثم بدأ يندندن أغنية تامر حسني «اللَّهُ يباركلي فيك»: اللَّهُ يباركلي فيك يا أغلى من عيني، اللَّهُ يخليني ليك ويخلي الدنيا ديه.. اللَّهُ.. اللَّهُ.. حبيبي..

فُتحت أبواب المصعد فالتهم القفص الجمع كله، مد جمعة ورقته إلى الصبي. الذي ضغط على الأزرار ورماه بنظرة قاتلاً: ارجع إلى الخلف هناك من هم على عجلة من أمرهم، سأخبرك حين يتوجب عليك الخروج. فوجئ جمعة بمركبة بطيئة تتوقف عند كل طابق، لدرجة أنه لم يشعر بصعوده إلى الطابق الثامن والأخير، لكن الصبي لم يشير إليه بالخروج، وانتاب جمعة القلق، أجابه الفتى بكل بساطة:
- لم أنسك.

نزل القفص مجدداً وقام بمحطة عند كل طابق، ثم حط في الطابق الأرضي حيث تعرف جمعة على القاعة، صرخ الصبي بالناس المتكدسة والتي لا تفصح المجال، ولكنه بعد لم يشير إليه بالخروج، مما زاد اضطرابه ثم وجد نفسه وحيداً مع الصبي، تملكه الرعب الشديد حين هبط المصعد لطابقين وكأنه يقصد الجحيم فصرخ مندهشاً:
- إيه! إلى أين تصطحبني!

خشى ألا يكون هذا المصعد سوى فخاً وهذا الصبي من «الخضر» يريد اصطحابه لسجن يكلفه الهروب منه غالباً. لم يجب الصبي حتى توقف المصعد وفتح أبوابه على مشهد يشبه قاعة الاستقبال ولكنه أكثر رعباً، حشد من المفجعين، نساءً قد أغمي عليهن يتمسكن كيفما كان، أنينٌ وعويلٌ وصراخ غضب ودعاء على ملك اللصوص وأخطر المجرمين.

قال الصبي دون أن ينظر إليه حتى:

- هناك، المكتب اليميني، أعطهم الورقة. الله يحميك.
يغصُ المررمادي اللون خافت النور بأناسٍ صاخبين، يُغلق على بعد
عشرة أمتار ببوابة كبيرة من الحديد. من جهة اليمين، غرفةٌ صغيرة تعجُّ
بالبؤساء بنور خافتٍ لمصباحين حيث عشر على رجل ذي رداء أبيض يجلس
خلف المكتب وأمامه كومةٌ من أوراقٍ كبيرة يتفحصها كلما مدَّ له أحدهم
بورقة.

يتحدى صوت التلفاز الصغير تلك الصرخات والعيول لينشر دفقاً من
الآيات القرآنية يتلوها شيخٌ بصوتٍ مرتعش.
يكرر الرجل ما إن يعثر على ما هو مدونٌ في الورقة أن عليهم
الانتظار، فأمامهم عددٌ كبيرٌ من الناس وأنهم سيدخلون بالدور لدى خروج
من سبقهم.

لم يفهم جمعة بعد، ظنَّ أن هؤلاء الناس يبالغون بآلامهم ليسمحوا
لهم بتخطي غيرهم وأنهم يرجون من هذا النحيب شفقةً أو صدقةً حتى ولو
شُفي ابنهم أو أخيهم.

مدَّ الورقة إلى الرجل حين وصل دوره:

- جمعة العلي، جمعة العلي. إنني لا أذكر اسماً كهذا.

أنهى البحث وقال:

- ليس لدي جمعة العلي. لا يمكنني أن أعطيك رقماً. لا بل إنني

مستغرب أنهم أرسلوك إلى هنا، لعلهم كتبوا الاسم الخطأ!

أجاب جمعة وسط ذهوله:

- أجل أجل دكتور! جمعة العلي هو أنا. أما صديقي فهو ياسين

الريش! ولكن لم يكن هناك متسعٌ لتدوين الاسمين فسجلت السيدة اسمي

أنا.

- بما أنها سجلت اسمك، إذا يجب أن يكون هنا. صف لي ياسين!

- أشقرُّ عيناه كالماء الرقراق وهو أقل طولاً مني.

تأمله الرجل مطوّلاً قبل أن يتفوه:

- صغير أشقر. لم أرَ أحداً بهذه المواصفات. لعله سُرق. حسناً، اذهب واجلس هناك أمام الباب، وعندما يحين دورك أشرح كل ذلك للممرض، عساك تعثر عليه.

تجمعت ثلاث عائلات أمام الباب الحديدي، يؤازرن باكيةً. هذا يشبه جنازة، حيث تبتهل النسوة متضرعات لله أن يتعمد برحمته علي وعبدو وشفيق. آه! فهم جمعة أخيراً! أنهن هنا لاسترداد جثمان موتاهن. إذاً هذا الباب الحديدي سيفتح على كومةٍ من الجثث لعل من بينها رفات ياسين ليحمله ويدفنه في مكان ما .

بالحقيقة، لم يفاجأ جمعة فقد كان ياسين يلتقط أنفاسه الأخيرة ليلة أمس الأول ولا بد أن الطبيب عجز أمامه. ولكن ما أقلقه أن السيدة في قسم الاستقبال وصبي المصعد وحتى الرجل هنا لم يخبروه بكل بساطة أن ياسين قد توفاه الله، لأجابهم أنه كان يظن ذلك بل خيرٌ له من البقاء مقعداً أو مختلاً، لا بد أنه الآن مرتاحٌ حيث هو، هناك في دنيا الحق حيث الأبرياء والطاهرين، خيرٌ من حياةٍ متسولٍ عاجزٍ جائعٍ يكسوه الذباب.

أخذه الدوار بشكلٍ مبالغٍ فانزلق على الجدار ليجلس على حافة الممر الرمادية. لم يعد يرى ولا يسمع سوى الأنفاس الطاهرة لياسين الذي كان يشعُّ بالنور، أول أمس، في الكورنيش حيث تسلل كقطٍ إلى حتفه. تلك الشعلة من نور الساحرة التي حولت الدجاجة الكريمة لمحاربٍ بطلٍ والتهمته شهيداً. لم يبق له من ياسين سوى هذا الحلم بشعلة نورٍ سعيدةٍ وفخورةٍ تتلاشى عند عتبة براد الموتى على ضفاف النيل.

فُتح الباب الحديدي وكذلك عينا جمعة لتلتقط مشهداً لقاعة شاسعةٍ ببلاطٍ أبيض. طلب الرجلُ ذو الزي الأبيض أن تفسح العائلات المجال لمرور ميتٍ ممددٍ على حمالة الموتى ذات الدواليب التي اكتست بغطاءٍ ملطخٍ بالدم عند الوجه، ثم تبعها زوجين مسنين بوقارٍ صامت. لا تغطي

السيدة شعرها الأبيض بل يزين صليبٌ كبيرٌ صدرها، تترنح متكئةً على زوجها الذي غاب وجهه خلف الدموع، إنهما ينتظران المصعد .

اقتربت العائلة عندما سأل الرجل ذي الزي الأبيض عن التالي، دخلت إلى «براد الموتى» وأغلق الباب الحديدي وبعد بضع لحظات دوى نحيب امرأة، لتعود «نقالة الموتى» فارغة يدفعها الممرض ودخل «براد الموتى». كُريت هذه العملية مرتين لعائلات متلاحقة مع ذات النحيب واللغات عينها . لم يبرح جمعة مكانه، ينتظر دوره على حافة الجدار. لا تراوده سوى رغبةً واحدة هي الهرب من هنا وترك جثمان ياسين ليهتم به العاملين في هذا المستشفى، حقاً، إنه لا يقوى على طقوس الموت إلا إذا وافاه كلُّ من رجب وحسان ليمدا له يد العون، عندها سيحملون الجثمان إلى الحي العلوي في دار السلام ويفسلوه بمياه الصنابير الخاصة للوضوء في الجامع ثم يوارى الثرى في إحدى المدافن، بعد أن ينثروا فوقه أزهاراً مسروقة من مشتل المعادي .

حان دوره بعد مرور آخر موكب جنائزي، اقتحم براد الموتى لتذهله صفوفٌ مصطفة من الأدراج المعدنية المغلقة تماماً ومنفصلةً عن بعضها البعض كتلك الموجود عند الميكانيكي أو المرصص، في كل درج يرقد رفاتٌ ميتٌ بانتظار أن يصطحبه ذويه إلى مثواه الأخير .

مجلسٌ صامتٌ لعشرات الجثث الطرية تنبعث منها روائح مقرزة، مزيجٌ من روائح الكلور والأقدام الوسخة والقمامة والدم .

مد ورقته للممرض الذي قال مستغرباً :

- لا رقم! يلزمني رقم لأساعدك .

- ما من رقمٍ لياسين ولا حتى اسم، دكتور، إنه فتى أشقر صغير، عيناه فاتحتان، حملته أول أمس إلى هنا بعد أن دهسته سيارة شرطة .

أرسلتني السيدة في قسم الاستقبال إلى هنا مع هذه الورقة .

- في الحقيقة لا أذكر يا بني دخول جثمان بهذه المواصفات ولكن لو

أردت يمكنك البحث، هؤلاء من ليلة أمس وأمس الأول - مشيراً إلى الجانب الأيسر - وهناك المزيد من ضحايا اليوم بانتظار مكان لهم.

اقترب جمعة، لم تلق هذه الجثامين الرعب في قلبه، فمنذ أن رأى جثمان والده، صادف العديد منها مرمية في المزابل، جثامين لأطفال قد لا قوا مصرعهم دون أن ندري لا كيف ولا لماذا.

ليس بحاجة لرفع الأغطية، تبدو الجثامين أطول من ياسين بكثير، والأحذية التي ينتعلونها لا تشبه صندل ياسين.

تحت أحد الأغطية، شابة قد لاقت حتفها تحت عجلة شاحنة فوجهها المسطح المشوه المتلطح بالدم يروي حكاية مصرعها. وهناك، فتى بعينين زجاجيتين وشعر مصفف بفنون «الجل» يبدو أنه لم يتجاوز بعد الثانية عشرة. وعجوزٌ بلحية بيضاء وعينين جاحظين، فقد أسنانه جميعها، تبدو على وجهه دهشة الألم وهول الموت.

سأل الحارس:

- ألم تجده؟ حسناً، إنها ليست المرة الأولى، يا بني. غالباً ما يختفي صغار السن الذين يتعرضون لحوادث ويرمون في الشارع دون هوية. يتظاهرون بالبحث عنهم وهم يعرفون مسبقاً أن أعضاءهم قد سُرقت وهم أحياء وبيعت الواحدة تلو الأخرى، كل شيء العينان والكبد والكلى والقلب، توضع في علب صغيرة ويطوى الحديث عنهم حتى في جنان الخلد. غداً، فليمدني الله بعونه، ستوافيني امرأة أو اثنتين، أم أو أخت ليسألنني عن أحمد أو محمد ...

لم يعد جمعة يصغي إليه فهو على دراية بهذه القصة ولكن الجديد فيها أنه ليس الخفر فحسب من يقدمون على بيع الأموات أيضاً بل انضم الأطباء أيضاً للقاولة، لا بد أنهم يقطنون في مدن الأحلام تلك التي نراها في الإعلانات، بعيداً في الصحراء لا تتاح لعامة الناس، فهي ليست بمنازل بل قصور. يركبون سيارات تنطلق كالإعصار مثل سيارات الجنرالات.

إنها المرة الأولى التي يشعر بالإقياء بسبب الرائحة، ها هو طيف ياسين يلوح على ضفاف النيل جاثياً، ينحني قليلاً ليرشف بيديه من مياه النيل، تقول قصةً قديمةً أن ماء النيل يبعث الموتى، ترى حتى الموتى المقطعين، لا يعلم حقاً، ولا يعلم أيضاً أين هو. تمتزج صورة ياسين مع دوران البلاط والرفوف من حوله، لم تعد ساقاه تحملانه، انها... النهار...

دون أن يفقد الوعي تماماً في ممر المشالغ بالضبط قبل أن يصل إلى المسبح، انبثقت فوراً رؤوسٌ انحنت فوقه، خيالاتٌ متماهية كالضباب كأن ماءً انسكب في عينيه، تتناهى لمسامعه أصواتٌ يعجز عن تمييز حروفها، أملاً أن يتوصلوا لنجدته فهو عاجز عن التقاط أنفاسه فهذا الهواء الذي يعبق بالكلور يلهب رثتيه لا بل يلتهمها.

فجأة، شعر أنه يرتفع عن الأرض، لم يعد يرى ولا يسمع شيئاً إلى أن فتح عينيه ليرَ مدرب السباحة ينحني قلقاً فوق رأسه ويسأله إن كان على ما يرام. إنه يسمع جيداً ويرى بوضوح، شعر بكمامة الأوكسجين التي وضعت على فمه وأنفه، أدرك حين نظر من حوله أنه مستلقٍ على الأريكة في قسم الإنقاذ، يلتقط أنفاسه من كمامة الحياة.

تساءل في سره لماذا لم يحدث هذا، أمس وفي نفس المكان، عندما بحث عن الفتاة ذات الشعر الأحمر، ولم يلق لها أثراً؟ وأي جنون مسه حتى يعود يوم الخميس، يداعبه أملٌ خافتٌ بلقائها؟ ولماذا صادف أن يرسل له نيكولا وهو يخلع ملابسه في حجرة المشالغ رسالةً تخبره فيها أن راف قد نُقل إلى المستشفى بعد أن أقدم على قطع أوردته بالمشرط، وأنه لم يمض لكنه فقد الكثير من الدم.

أغرقت هذه الهجمة العنيفة للحساسية من الكلور ناتان في وهنٍ دام ليومين. استغل ناتان هذين اليومين بغيابٍ مبرر عن المدرسة في الأيام

الأخيرة قبل العطلة بالهروب عبر لعبة « Serious Sam3 » حيث يقضي على الوحوش الواحد تلو الآخر في مصر المدمرة المملوطة بالدماء، لكن عكس راف مرة أخرى صفوه ومتعته، فطُخ الدم تذكره دون توقف بدفقٍ أحمرٍ قاني يُفلت من معصمي العاشق المبتورة، يا له من أمرٍ مرعبٍ لا بل منفر.

لعل الدم انبجس ملطخاً جدران غرفته، وإيهابه الممزق يتدلى برخاوة، لا بد أن يترك ندباً يندى لها الجبين، أكثر سوءاً من وشمٍ لذكري مأساة لن يمحيها النسيان.

كان واثقاً بأنه الدافع لهذه المصيبة، لكنه غير مسؤول. لم يكن يرغب أن يلقي راف كحملٍ ثقيلٍ ليتلقفه رعبٌ جراحه، رغم القصد الخبيث الذي رمى راف إليه بأن يجعله يكابد من الشعور بالذنب، الذي لم ينتابه للحظة لأنه هو من استسلم لمتاهة اليأس وما بذل أدنى جهد للهرب بل بالغ بالآلام ليثير الشفقة ويوصل رسائله كعلمٍ للغناء. لم يراوده العطف أبداً تجاه آلام راف على العكس تماماً إنه يمقتها كمرضٍ معدٍ يجب البقاء في مأمنٍ منه مهما كلف الأمر.

أسدت له لويز بأن يظهر ويتصل بأهله ليستعلم عن أخباره أو أن يرسل له رسالة قصيرة على الأقل، فأجابها:

- ولم لا أزوره في المستشفى مع بطاقةٍ من الزهر؟

علقت قائلةً: - أليس لديك قلب؟

يعلم ذلك ومنذ زمنٍ بعيد أن لا قلب لديه، فما سكن قلبه أبداً في ذكرى واحدة أو في وجودٍ واحد ولا في حبٍ واحد. بضع صورٍ فقط يعرفها تماماً تحرك مشاعره وقد يذرف لها دموعاً وما تحدث لأحدٍ عنها، لعل والده فقط من يتوقعها، والده الذي طالما أبدى له التساهل، ويصفح عن كل أخطائه سعياً لتعويض غياب الغالية بكل رقةٍ وصبر. يدرك ناتان جيداً أنه لم يعد قادراً على الحب، وأن الواقع بالنسبة إليه، قد فقد لذته إلا بتلك الأبواب المتهللة والأسرار البعيدة.

نعم ليومين بلعبته المفضلة و هي الغوص في عالمه الخيالي، يلف حبلًا حول رقبته في خزانة الثياب، هذه اللحظات الأفضل والوحيدة التي تحمله لنسيان دماء راف وحادثة الكلور وأسئلة مدرب السباحة الذي لاحظ الآثار الحمراء حول رقبته، قلق لأمرها فسأله إن كان لديه فكرة عن مصدر هذه الآثار وإن لم يكن قد ترك نفسه صدفةً للعبة حمقاء. خفق فؤاد ناتان بسرعة وأجابه بالنفي مستغرباً عن أي لعبة يتكلم، كما أنه لم يلحظ قط هذه الآثار، لعلها ناتجة عن حساسيته فقد شعر حين كان يختنق بحكة عند الرقبة.

أبدى المدرب أنه قد صدق حجته، لكنه ومع ذلك، طلب رقماً يمكنه من الاتصال بأهله وفعلاً فعل، إذ أجرى اتصالاً في المساء ليطمأن عن ناتان وتحدث مع والده بالأمر.

سارع ناتان إلى الحمام بعد مجيئه من المسبح ورأى تلك الآثار جلية في المرآة واحترأ بأمره كيف سيخفيها فليس من المعقول أن يرتدي وشاحاً في المنزل. وعندما جاء والده ليفحصه عن كثر مستفهماً عن هذه البقع الحمراء، كرر على مسامعه نفس الكذبة التي رواها لمعلم السباحة، مضيفاً أنها ما زالت تسبب له الإزعاج.

خطر له في اليوم التالي أن يغطيها مستخدماً القليل من «البودرة» التي تضع منها لويز، بقصد التخفيف من التباين بالألوان حول رقبته، ووالده لم يعد يتحدث بالأمر.

كيف لا يلجأ لأحلامه الهندية وهي من جعلته يسلى الضيق الذي تسببت به فكرة عدم قدرته الذهاب مجدداً إلى المسبح، فتلاشى أمله الضئيل الذي كان فرحاً به بقاء ذات الشعر الأحمر والعينيين الخضراويين وتلك البشرة الشفافة. تلك البشرة التي تلف جسداً يتماهى مع سلاسة الهواء والماء تكفيه ليقبل وجوده في هذا العالم.

أمضى يومين في خدره الأحلام بفتور لا بل بذهول يدنيه من نهاية

رحلته في ذات الوقت التي يحزم فيها أمتعة السفر. رحلته على البساط الطائر الذي سيمزق بالقوة بعد أن سلمته البقع الحمراء رسالة الوداع، إنه لا يدري كيف سيستغني عنه ويبقى بعدها على قيد الحياة، سرى بجسده قشعريرة بعد تلك الرسالة، منطوياً على نفسه في فراشه تدثره العتمة، يحلم أن يصغر ويصغر حتى يتلاشى وحين يناديه والده بصوته المرهق يعاني بالخروج. كيف سيفارق ألعابه تلك التي إن وضعت جميعها بصف واحد لا تصنع له يوماً واحداً من حياته على الأرض والتي لا تغريه بشيء فهي جسدٌ فاسدٌ، نخرٌ يخشى أن ينتابه وفي الوقت نفسه عليه أن يداري بقع ألعابه كأثارٍ لعملٍ مشين.

رغم الذهول الذي يعتريه والأحلام التي تأسره، كان عليه الخروج من غرفته، من منزله ليبتاع بضعة أغراض ضرورية قبل الرحيل، تلك الأغراض التي دونها والده على قائمة تتوقع كل ما قد يلاقي رحلتهم من مضايقات: حذاء مشي ومطربة ماء كما لو أنه سيغير الصحراء، قبعة ذات حواف عريضة، كما لو أنه سيذهب لاصطياد أسد، كريم شمسي وكأنه سيعرض جسده لحمام شمسي حول المسبح ذي رائحة الكلور، لتراً من غسول ضد الحشرات الطائرة كما لو أنه سيضرب غابة استوائية بالساطور وأدوية: مطهر ومضاد إقياء، مضاد حساسية، ضد الهيستامين، مضاد إسهال، مسكن ألم، مضاد تشنج بل ومضاد جرثومي ومضاد التهاب مع وصفة وتفصيل أخرى تتوعد ببلدٍ تنتشر فيه الأوبئة والكوارث الصحية.

اعتقد أن عليه شراء جيل كحولي لغسل اليدين، ولم يجرؤ أن يضيف لحقيبته قناعاً واقياً.

في اليوم التالي، بعد ظهر يوم الأحد أمسية السفر، جاءت مانون برفقة أهلها حاملةً أمتعتها، فكان لا بد أن تنام عند ناتان إذ سيهمون بالرحيل مع الفجر.

ما زالت ذكريات رحلة والد مانون إلى مصر تداعبه رغم مضي عشرين عاماً، فهذا هو يتحدث عنها كما لو أنه عائدٌ منها أمس الأول، فمصر بلدٌ خلابٌ حاضرٌ دائماً لأنه أبديٌّ بآثاره والمومياء والنقوش البارزة التي تسكن المعابد والقبور. إلا أن القلق يساور والدتها جرأاً الفوضى والمظاهرات التي تعم البلاد والأمان المفقود في أرجائها وبشكل خاص القاهرة بعد مضي تسعة أشهر على الثورة. فمنذ خمسة عشر يوماً أُحصي أربعة وعشرون شهيداً من الأقباط في مركز المدينة، حسبما قيل، حيث تبثُ الشاشات صوراً مرعبة لمدركات تنقضُ على المتظاهرين لتدهسهم، والمشكلة أن برنامج الجولة يحتوي على يومين في القاهرة قبل العودة وبعد إضاءة ثمانية أيام في رحلة بحرية بين الأقصر وأسوان.

أبدت وكالة السفر وضوحاً بهذا الخصوص، فالفوضى لا تعم الأرجاء هي حكرٌ على بضعة شوارع يجب تجنبها، أما الشوارع الأخرى فبوسعهم التجول فيها بهدوء وسط ترحاب حفي من السكان الذين يتوقون لاستقبالهم، حتى متحف مصر لم يغلق أبوابه رغم أنه كان مرمىً لحجارة الصراع. من جهةٍ أخرى، فإن الفندق حيث سيقيمون يبعد عن مركز المدينة عشرة كيلو مترات قرب الأهرامات.

تطلُّ الأهرامات من ذاكرة والد مانون كموقعٍ مدهشٍ وجذابٍ يكشف لنا عن تجربةٍ روحانيةٍ ويدعو لغز تشييدها للتفكير مطولاً بوجود قوى فوق طبيعية.

فتساءل ناتان في سره: كيف لهذا المتوهم الواهن أن يحكم بقضايا الناس والجنح الصغيرة في مدن فرنسا؟

تشبثت والدة مانون بفكرة أن مصر بلدٌ حيٌّ وأن الأضرحة قد أثارَت حفيظة الشعب المستعد لرمي حضارته القديمة في الحاوية. ستتصل بابنتها كل يوم معتمدةً على حسن تصرفهم، ما جعلها مطمئنةً بعض الشيء، كما جعلتهم يطلقون لها وعداً بالعودة فوراً لدى حدوث أي طارئ.

أقسمت مانون بألا تغادر المجموعة أبداً وأن تبقى جوالها مفتوحاً حتى أشاء الليل.

بعد سبيلٍ من التعليمات، غادر والدا مانون ولم يكن الليل قد هبط بعد .

خرج ناتان بعدهما للتو ليشتري الخبز، فلفته الشمس الغافية خلف أبراج الدفاع مرخياً سدولها فوق المدينة أسفل جادة رودان لتغرقها ببحرٍ وردي اللون، ترى ألا تبدو هذه البانوراما خلابةً أكثر من الأعلى ومن البعيد حيث تتماهى التفاصيل في مثل هذا الوقت.

إنه مساء يوم الأحد حيث يسود الهدوء جادة رودان، لقد لمح من بعيد على بعد 100 متر تقريباً، طيفٌ يتجه نحوه قادماً من سلالم محطة المترو، أجل إنها هي فتاة المسبح، الفتاة ذات الشعر الأحمر. مازالت المسافات تفصل بينهما ولكن لاشك أنها هي، يا لها من معجزة! تلاشت شكوكه كلما اقتربت، هاهو شعرها الذي لم ير سوى ثلاثٍ خصلٍ منه، إنه قصيرٌ. نعم إنها هي!

ترتدي بنطال جينز وكنزة سوداء يضيفي تناقض لونها مع لون بشرتها الشفاف سحراً أخذاً تحت الظلال الوردية للمساء. اقتربت منه وهي تنظر إليه بنفس الدهشة التي تملكته، إنه واثقٌ أنها قد تعرفت عليه، لعلها كانت تبحث عنه هي أيضاً وبأعجوبةٍ التقت به. كان لديه بضع لحظات ليقرر هل سيتحدث إليها أم يدعها تعبر بسلام مدركاً تماماً بأنه سيفقدها؟

التقت نظراتهما وهو يتساءل في سره ماذا يفعل؟ سار خطوتين ثم استدار وقال:

- ألم نلتقي في المسبح؟

استدارت مبتسمةً وقالت: بلى وتلاقت أيدينا!

إذاً لمحتة في المسبح وما زالت تذكر لمسة يده، لا بد أن هذه الذكرى

تسكنها . لم تسعفه الكلمات وسط ذهول استحوذ عليه، إنه يخشى الكلمات ومعناها السابح في عالم مجهول، فلصوته رنينٌ خطيرٌ يحرك شعوره، وصوتها الذي سمعه للمرة الأولى سيحرك صورتها ستهيمن على أفكاره كموجة تندفق من الواقع لتغمر أحلامه . إن الفتاة ذات الشعر الأحمر حقيقةً تسير على الأرض، إنها أمام عينيه، تعبر أول بعد للحياة المثيرة للحيرة المحفوفة بالمخاطر، حيث كُتب على كل زواياها من الأفضل الهرب...

بأقصى سرعة، يدخل المصعد، يجد المخرج من هنا، ويرفض حتى الشاي والبسكويت الذي قدمه له الممرض وهو يأمره بتناولها ومتسائلاً منذ متى لم يأكل أو يشرب، وعليه أن يهتم بنفسه .
إنه حقاً لا يتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي سدّ فيها الرmq لعله الشاي والخبز الذين تناولهما ليلة أمس في قسم التحقيق، ما عاد قادراً على تذكر الوقت، ولكن مهما يكن، لن يتناول شيئاً في هذا المستشفى حيث يمزقون الموتى إرباً، رغم الظمأ الذي يحرق حلقه والضعف الذي اعتراه فلن يقدم على ذلك مقابل أي شيء .

أرخى الليل سدوله وما زالت القاعة تعجُ بالناس . تدق عقارب الساعة السابعة مساءً، لكن الكورنيش يعدُّ قليلاً من السيارات، يا للغرابة! ما من باصٍ يتعلق به، كما لو أن الليل قد انتصف وخذ الناس جميعهم للنوم . ما من رجل شرطة واحد عند مفترق الطرق . كيف سيعود الآن، غرق بالحيرة، في هذه الأثناء عبرت سيارة أجرة، ليست عادية إنها سيارة أجرة بيضاء، يتم الدفاع حسب رغبة السائق لا حسب العداد، هذا ما قيل له!

أوماً للسيارة قرر أن يتوسل إليه أن يصطحبه فقط خمسة وستة كيلو مترات على طول الكورنيش . توقف السائق، أخبره جمعة أنه يقصد دار السلام، ولكنه لا يملك جنيتهاً واحداً فوافق السائق الذي كان قادماً من

مركز المدينة متجهاً إلى منزله في حلوان، قلقاً على عائلته، فخطوط الهاتف مفصولة جميعها. حدثه عن الفوضى التي تعم ساحة التحرير والهليكوبترات والشهداء والنيران التي التهمت المبنى الكبير لحزب اللصوص. تم فرض حظر التجول منذ ساعة تقريباً، إلا أن رجال الشرطة تعرضوا للهجوم وفتحت أبواب السجون، والجماهير في مركز المدينة مبهجة تقبل جنود الجيش وترفض العودة إلى المنزل، انتهى الأمر ولن يعود شيء كسابق عهده، إن أراد الله، سيلوذ الملك والمملكة والأمراء بالفرار عما قريب، لتولد مصر من جديد فليباركها الرب وبيارك أبنائها الحقيقيين.

فوجئ جمعة بما رأى فما من رجل شرطة في دار السلام لا في الحي العلوي ولا حتى في الأسفل، أفلت سكان هذه الأحياء البائسة في الشوارع ذات النور الخافت كعصافير هاربة من أقفاصها. لم يكن حظر تجول، إنه يوم عيد، لعله انتصار مصر بكأس نهائي إفريقيا.

شق جمعة طريقه بين الحشود المبهجة، لكن الأسى كان يسكنه حزناً على ياسين التي طالما زرع هذه الشوارع بخطاه وبصير طنبر الريش النتن. لم يتقاسم ياسين الفرحة مع هؤلاء الناس الذين كان يصادفهم كل يوم، ضحى بنفسه من أجلهم ولا يعرف أسماءهم. يدق كل متر من هذا الشارع بناقوس غيابه فيتملك الألم جمعة.

داعبه الأمل برؤية رجب في قهوة أيمن، تحقق أمله، ها هو هناك يحتسي الشاي أمام شاشة الجزيرة التي تبث صور الثورة، تعانقا لوقت طويل، كان القلق يساور رجب خشية أنه قد لاقى مصرعه أو رُمي في السجن، بحث عنه في الشاشات كثيراً، أما جمعة فواساه لقاء صديقه الذي سيقاسمه أمله، قدم له أيمن الشاي وأرسل الصبي الصغير ليحضر له خبزاً وقلقل. روى جمعة كل ما جرى معه، تحدث عن المتظاهرين وعن لقاءه بياسين وعن ياسين الجريح ثم ياسين في المستشفى، تطرق لفرع التحقيق وبرد الموتى حيث فُقد جثمان ياسين مع أنه واثق أنه قد توفي. قال له رجب

بأن عليه أن يأكل ويأخذ قسطاً من الراحة، وغداً سيخبرون حسان ويتجهون إلى المستشفى، وإن لم يسلموهم جثمانه سيضرمون فيه النار، فلا بد أن يغسل جسده ويكفن ويتم دفنه بعد صلاة الموتى وإلا فلن يلاقي الجنة.

تناول جمعة طعامه واتكأ على كتف رجب غافياً. بعد برهة، هزّه رجب قائلاً: «ملك اللصوص سيتحدث على الشاشة، ربما سيعلن تنحيه». ولكن كلا إنه يهذي بصوت خافت كأب نهره أبناءه وقال: «مصر ستغدو بشكل أفضل، إن لها غداً واعدأ والمهم أن يلتزم الشعب المنازل». اجتاح الشوارع صفيرٌ وصراخ وكلمات «ارحل»، ثم تلاشت رويداً رويداً. أما شبان «الفييس بوك» الثائرين فما برحوا ساحة التحرير، ربما شهدت ثورتهم شهداء، ربما ملايين الشهداء لكنها ستستمر. هدهد هذا اليقين المترع بالأمل لجمعة الذي افترش الأرض الدرنة في قهوة أيمن، انطوى على نفسه قرب الجدار واستسلم للنوم تماماً.

راود حسان الشك باستشهاد ياسين، هذا قاله لهما في صباح اليوم التالي، فغياب ياسين لثلاثة أيام متتالية ينبأ بموته أو ضياعه، شعر أنه كان يرغب بأن ينهي حياته شهيداً، ففي ساحة التحرير تبدل «الكراج» وسعى لأن يضحى بنفسه من أجل الآخرين، نعم لقد راوده هذا الإحساس لا بل رآه بعينه بالطريقة التي كان يركض بها ويلقي بنفسه بالمخاطر. كل ذلك ما كفكف دموع حسان، لطالما ترعرع حسان في كنف والديه وتعلم القراءة والكتابة، فما زال لديه دموعٌ ليذرفها.

قصدوا مشفى قصر العيني، لم تكن السيدة المعتادة في قسم الاستقبال، حل محلها سيده أكثر شباباً، ألقت نظرة على السجل ثم أجرت اتصالاً. أكدت لهم أن الصبي الذي حمله «جمعة العلي» قد توي في نفس اليوم الذي وصل فيه، هذا ما كتبه الطبيب، إلا أن جثمانه لم يدخل براد الموتى. لعل الشرطة قد أخذته أم أخطأت إحدى العائلات بالصبي المشوه. لعلهم

يعثرون على جثمانه يوماً ما في إحدى الأماكن وخزائن الخدمة بخطأ من أحد الممرضين.

بدأ حسان بالصراخ ثم أمسك السجل ورماه أرضاً، فهرع الحراس و زجّوه خارجاً. هام الفتيان الثلاثة لعدة أيام تلت في أزقة الحي العلوي الخاوية رغم ازدحام الناس، يتلفتون في كل الاتجاهات يداعبهم أمل كاذب بظهور ياسين.

في أحد الأيام، اتجهوا إلى ساحة التحرير التي كانت تشهد «مسيرة المليون»، اجتمع شعب القاهرة برمته في الساحة ليصرخوا معاً «طالبين الخلاص» مطالبين عصبة النصابين بالرحيل.

كان حسان قد التقط لياسين الأشقر صورةً للباسه يوم استشهاده وهو يبتسم له ويتنزه في الساحة، فطبعتها بحجم كبير ولوّح بها فوق محيطٍ مترامي الأطراف من الرجال والنسوة والأطفال ولدى سؤالهم هذا الشاعر بأحزانه والمجنون بمأساته، من يكون هذا الغلام؟ أجابهم: «هذا ملاك الثورة! حياً أكثر من الأحياء وميتاً أكثر من الأموات».

طلب جمعة من حسان أن يطبع له نفس الصورة بحجم أصغر، لا ليراها وإنما ليدسها في جيبه «كالتعويذة»، شعلة صغيرة تمدّه بالقوة لمتابعة حياته ويجمع العلب من جديد.. في المساء سيتابع الأحداث عبر شاشة التلفاز في قهوة أيمن.

هاجم مرتزقة النظام شبان «الفييس بوك» على ظهور الجمال، أما ذاك الجنرال المريع ذو ربطة العنق فقد أعلن تنحي الرئيس بحداد كما لو أنه يعلن وفاته، في اللحظة نفسها، انفجر الفرخ في ساحة التحرير ولا بد أن الساكن في الطرف الآخر من البحر قد سمع دويه. وفي الحي العلوي لدار السلام، أُطلقت الأعيرة النارية في الهواء، دُعر رجال الشرطة فاختلفوا عن الأنظار، أما المساعد الذي بحث عنه آلاف المعذبين فقد لاذ بالفرار إلى ليبيا هرباً من جرائمه.

بثَّ التلفاز، مشاهداً من أحياء «الفييس بوك» المترفة حيث تدجج بعضٌ من شبانها بالشوبك وعصي الغولف لحماية أبنيتهم الجميلة من مباغطة المجرمين الفارين من السجون. لم يكونوا يدركون أن كل السوقيين، قاتلي النسوة والمبتزين وخاطفي الأطفال قد اجتمعوا في دار السلام، يطلقون الأعيرة النارية بأسلحتهم التي استولوا عليها من أقسام الشرطة التي التهمتھا النيران. نشبت حروب ضارية ما بين الجيوش التي انضموا إليها والتابعة لأمرء المخدرات وتجار الأعشاب والحشيش والترامادول، وهم يعيشون فساداً متنقلين من مبنى لمبنى دون هوادة، وسكان الحي ما أطلوا على الشوارع إلا في أوقات الهدنة حين يهدأ إطلاق النار.

لم يعد الناس يتعرفون على بعضهم البعض، لقد تغير كل شيء، فأجسادهم التي فك وثاق الخوف عنها، صارت تسبح وكأن الجاذبية قد انعدمت بخفة غير معهودة.

يرسم الأطفال على الجدران، يتعانق العشاق على مرأى الجميع وغدا العجزة شباباً برشاقة غريبة، وفي الصباح، حلَّ «صباح الثورة» محل «صباح الخير»، امتطى الخلاص المرتقب صهوة الربيع ببشائره التي هلت على مصر وما تتأقل إلّا في دار السلام.

ما زالت الثورة حديثة العهد ببراعم السعادة. تخبطُ غريبٌ في الشوارع، فحسب ما روى حسان، أنه صادف في المترو صبي يشبه فتاة بشعرٍ طويل متموج يضع رأسه على ركب شاب آخر فيداعب شعره ويقبل جبينه، أما على الكرسي المقابل، سلفيٌ ملتحي يتلو بعضاً من الآيات القرآنية من شاشة الجوال.

في الحي العلوي لدار السلام، لم يكن شيءٌ يهدد هذا الربيع، لا حروب عصابات الأشرار ولا الجماعة التي برزت أنيابها. ارتقى المياومون ببرائث العطالة جرأء الإضراب الذي يضرب أنحاء البلاد والموانئ المغلقة وأسعار البنزين المرتفعة والمزيد من المشاكل التي لا حصر لها، زد على أن

أسعار الخبز والسكر والشاي تتسلق عالياً، وازدهرت الصناعة الوحيدة «كل شي بيمشي» التي روجت لها عصابات الأشرار ومقليبي المزابلية العمومية.

لم يستغرق الربيع فصله كاملاً، اكتفى بأقل من شهرين بعد مغادرة المستبد العجوز، هناك على الأرض، شاهد جمعة حزمة من المرتزقة على شاشات التلفاز، تكتسح ساحة التحرير بمنصاتها وخيامها أمسك رجال الجيش بالثوار الذين حاولوا الهرب. عُرف لاحقاً أن الفتيان قد تعرضوا للتعذيب أما الفتيات فقد أهن ومزقت ثيابهن ثم أحييت الأمور برمتها إلى المحاكم العسكرية، وحكم عليهم بالسجن لسنوات.

فهم الجميع، في قهوة أيمن، أنه لم يكن هناك ثورة وأن ذاك الرجل الذي أُعتبر ملك اللصوص والمجرمين ليس سوى دمية متحركة بأيدي الرجال ذوي الزي الموحد والمزركش، وهمهم الوحيد هو الاحتفاظ بما لديهم من ميزات وبأموالهم الأميركية ومزارعهم ومصانعهم والمدارس الخاصة التابعة لهم والمشايخ والنوادي والمطاعم والمساح وآلاف التجاوزات الأخرى للقانون وما يعود عليهم بالفوائد، أولئك لم يغادروا وإنما جرجروا دميتهم إلى المحاكم ولم لا ينفذون بها حكم الإعدام شنقاً، وينظمون انتخابات ويلوحون بالحرية.

اتفق كل رواد قهوة أيمن أن الكذب صار واضحاً على وجوه هؤلاء الحيتان القدامى في خطاباتهم، لن يغادروا أبداً.

حلّ الصيف ثقيلاً على بعض العائلات التي عجزت عن تأمين ما يسد رمق أبنائها حتى في حي دار السلام السفلي. رجب من بينهم، فما عاد الناس يقبلون على شراء المحارم، أما جمعة فقد حظي بصيف وافر الخير، مع بدء العطلة المدرسية ومنذ عدة سنوات خلت، نصبه عجوزٌ بدينٍ أثمرم بالكاد يقوى على الحركة المسؤول عن الأرجوحة التي صنعها العجوز بيديه من قفص حديدي مركب بطريقة الميكانو وطلاها بكل الألوان تقريباً

مع مقعدين وفيل صغير من البلاستيك مثبتة على أرض معلقة تتحرك ذهاباً وإياباً حسب قوة الدفع. خصص الرجل العجوز أرضاً صغيرة غائبةً بين بنائين في الحي السفلي لدار السلام. بالكاد يتوصل «العجوز»، لقبه ربما لأنه عندما وطأ الحي كان يناهز الأربعينات، لدفع الأرجوحة خلال الفصول المجذبة، فهي تتطلب دفعةً قويةً تنهكه للتو فكل من يعتليها ثقل الوزن بما فيه الكفاية. أما بحلول الصيف ومع توافد كل أبناء الحي في كافة الأوقات، فلن يقوى على ذلك بمفرده وجمعة اعتاد هذه الرياضة التي تتسبب له بتبيس في العضلات في اليومين الأولين فقط. كان العجوز سعيداً بمساعدته فهو يتعامل مع الأطفال بظرافةٍ وصبرٍ محبين.

كلفة الجولة الواحدة بالأرجوحة ليرة واحدة، كان جمعة يكسب 10 ليرات باليوم، ما يكفيه لتناول صحن فول وفلافل في الصباح والمساء، متقاسماً وفترة الطعام مع رجب في مأواهما الجديد أعلى السلم حيث ألقى سيارة بيجو 504 مكسوة بالوبر منذ عشر سنوات تحت جسر منيب. يتقاسموها مع الجائع الذي سبقهم إليها.

اعتقد الجميع أن قائمة 864 شهيد قد أفضت لنهايتها بغض النظر عن ياسين وبعض الشهداء الآخرين، فخلال هدنة رمضان وحتى تشرين الأول، لم يسقط ضحايا. في إحدى الأمسيات، بثت الجزيرة صور مدرعات الجيش تنقض بضراوة على الذين تظاهروا على خلفية قصة الكنيسة. تعرّف جمعة على المكان بشكل جيد إنه نفس المكان بالضبط حيث قذفت سيارة الشرطة ياسين في الهواء على كورنيش ماسبيرو قرب مبنى التلفزيون لكن هذه المرة، الجيش من يتعرض للناس ويسحق أجساداً. أضيف 24 شهيداً للقائمة. انهار أيمن القبطي على كرسي في قهوته وأجهش بالبكاء، فهو من الثوار الحقيقيين، قال بين شهقتين أنه سيشتري سلاحاً ويطلق النار على أول ضابط يصادفه. حاول الزبائن مواساته وبدلوا جهداً لتهدئته حتى أخذه أحدهم في أحضانه وهدده له كطفلٍ باكٍ.

غرقت دار السلام بيأسٍ فاض أنهاراً من الأيام الكئيبة. انبعث في هذه الليلة المألوفة جداً حلمٌ يحلق على جناح لحظةٍ قصيرةٍ منسية، حلمٌ بالرحيل واللجوء...

إلى عالمٍ أفضل من بلد الأموات هذا. يداعب الظل الرطب لهذا الضريح في وادي النبلاء ناتان الذي نهشته الشمس وأرهقه الحر وأغاضه الذباب العنيد. يا للارتياح الذي يشعر به والذي حُرِم منه منذ أن وطأ الأقصر، إلا في هذا الضريح الكبير «لراموسي» وزير الصعيد تحت حكم «أخناتون»، وكذلك في غرفة الفندق المكيّفة، صباحاً وعند بزوغ الفجر حين كانت مانون مستغرقةً بالنوم أسفل تلك النوافذ الكبيرة المغلقة خلف الستائر الزرقاء التي لا يشفُ منها سوى صباحُ العصافير المغرّدة.

أفلت هذا الضريح بأعجوبةٍ من السيّاح، فاتحاً يديه ليهبَ صوراً منحوتة وأخرى مرسومة لعالمٍ لن يضيع أبداً، عالمٍ باقٍ كالسراب، كتخيالاتٍ عذبة كحلم يقظة بنعمةٍ سرمديةٍ لشعبٍ منفصلٍ عن كوكبنا يرتب لرحلته الأخيرة بصفاءٍ وفق لحنٍ إيقاعيٍ لا تشوبه شائبةٌ فتسري فيك نشوةُ البخور ثملاً بعبط اللوتس، متسمراً أمام عالمٍ ناعمٍ كحجرٍ مصقول.

في الخارج، العكس تماماً، تنتقل بين الضيق الذي يليه الطقس وشراسة الحشرات وبين إزعاج الصبية بثيابهم الرثة القذرة والذين تسكنهم الطفيليات والقمل لا محالة، ينبثقون كسربٍ من الأشباح ويتعلقون بذراعه ويشدون قميصه وهم يتوسلون أن يشتري فقط لعبةً من الشيفون لنفرتيتي قذرة بل ومصنوعة في الصين.

استمتع أيضاً بالظلال المهدئة في باحة معبد رمسيس الثالث القابع في مدينة حابو منذ ملايين السنين. تحيط الأعمدة بالساحات التي رصصتها الشمس وتلعب فيها زوابعٌ من الغبار.

تعرفُ ناتان هنا وكذلك في الكرنك على ديكورات Serious Sam3،

لعبة الفيديو المفضلة لديه، ولكن هذه المرة حلت أسراب السياح المزعجين محل وحوش الفيديو المقززين والمسلين ولكنه لا يتمكن من تفجيرهم بمجرد ضغطة بالإصبع، كما أنهم يفسدون، ما تقدم النحوت الناتئة من أمراء ومحاربين وآلهة بالإضافة لتلك العقارب الضخمة والتماثيل ذات القرون بعيون حمراء كحممٍ منصهرة، يدمر هؤلاء البشر عظمة وسحر هذه المعابد مثل انفجار ألعاب فيديو ولكن بأسلوب هشٍ لا يعتريه أي إحساس بالمشهد. لولا هؤلاء السياح، لما مقت ناتان بلد الأموات هذا.

لم يكن الأموات يلقون في نفسه الكدر، كما أن مصر بدت له في الأقصر كمقبرةٍ مترامية الأطراف بأضرحتها ومعابدها الجنائزية والمومياء الموجودة في متحفها، لا نبض للحياة فيها سوى بأولئك الصبية الملتحين. تمنى ناتان لو أن تجوالهم على ضفاف الموت كان بالمنطاد، مما يضي على وقار المقابر فكرة ألا نطأها بأقدامنا.

المشهد في القاهرة، كان شديد الاختلاف، فهنا مدينة تعج بالحيوية ليل نهار ما لم يره ناتان بحياته، حيث يتدفق الناس بحيوية ومرح، يلفهم الصخب في الشوارع التي تأن من غازات النفايات وغيرها من العفونة.

اصطحبهم المرشد السياحي إلى أحد الأسواق المغلقة كما لو أنه كنزٌ مكنون بعيداً عن متناول الدروب المأهولة، إلا أن ناتان غاب عن الوعي بين أسراب الذباب وهي تغط على الطعام الفاسد الذي تعبق رائحته النتنة في المكان، ليتعثرون ببرك لدم حيوانات مذبوحة ومعلقة، لم تكن المرة الأولى فقد أغمي عليه مرة أخرى حين أصر والده على ركوب المترو عوضاً عن التاكسي ليعيشوا يوميات مواطنٍ مصري رغم التحفظ الذي أبدته كل من مانون ولويس. بعد أن أفاق من إغمائه، شاح بناظره عن تلك المتسولة المنتحبة التي تدب دبيباً وسط المترو وتمد يدها للناس وكانت قدمها العاريتان مطويتين بالاتجاه الخاطئ بسبب حوضها المشوه.

تتالت على طول الخط أمام ناظره مشاهد البؤس المحزنة بشوارع

كثيبة مزدحمة وأبنية متماسكة بأعجوبة بجانب أكوام من الحطام يسيرها رهطاً من الكلاب التائهة، ومصائب أخرى ليست بالحسبان. تطل بين الفينة والأخرى، دفقات أمان تغفو في ساحات صغيرة بارزة على ذراع شارع خان الخليلي أو في ظل خيمة لأحد المطاعم على ضفاف النيل، يهددها للتو عاملٌ ممرضٌ كطنبر التنظيف الذي يجره حصان يتضور جوعاً أو عصابةً من القطط القرعاء المتأهبة للانقضاض حتى تأكل وتموء بشراسة تحت الطاولة.

لاذ بالمشروب الكحولي ظناً منه أنه قد يخفف من وطأة هذه الآلام المبرحة، لذلك دس في حقيبته قبل العودة زجاجة فودكا بالدراق دون علم والده. لم يرشرف منها في الأقصر إذ اكتفى بثلاث من البيرة المحلية لينسى الحر.

قرر بعد ما أصيب بصدمات ليلة أمس أن يملاً جعبته ويحتسي رشفة كل ربع ساعة على طول اليوم التالي الذي سيمضيه في القاهرة، فبعد جرعة كبيرة تلاشى اشمئزاه، وهو في حجرة سيارة الأجرة العقيم والمكيف الذي يصطحبهم بجولة على كورنيش النيل باتجاه القاهرة القديمة ومتحف الأقباط شعر أنه في معزل عن الواقع المدني المؤلم حيث يتتالي صفٌ قبيح من الأبنية بعيداً عن ذراع النهر وعن تلك المتسولة ذات الرداء الأسود التي تطرق النافذة حاملة ابنها المنحني على كتفها في مشهدٍ خشي أن يكون يوماً أحد ممثليه.

حطت بهم سيارة الأجرة أسفل قناة تم ترميمها حديثاً وقد كانت تحمل ماء النيل إلى قصر القلعة. هناك بعيداً عن فتحات جسور القناة، تتوء أكواخٌ بأكوامٍ من النفايات. هناك حيث مصر التي لا يراها السياح.

كان الطقس حاراً وتخلّف ناتان عن المجموعة التي قصدت زيارة الأماكن المرممة للقناة ثم جلس على الحاجز المنيف على ضفاف النهر تتدلى فوقه أغصان شجرة تين البنغال^(*) وارفة الظلال.

(*) تين البنغال: شجر كبير تتدلى أغصانه على الأرض و تعرق فتحصل على أشجار جديدة.

حمل إليه النهر نسمةً عليلة داعبت وجنتيه فأثملته رامياً وراء ظهره ضجيج حركة السير وانزلق ذهنه بحلم يراقص إيقاع مجرى النهر. في الأسفل، مصطبةٌ حجرية خلفها رصيفٌ بأدراجٍ تصل إلى النهر، وقف عليها فتىٌ مبللٌ من رأسه حتى أخمص قدميه، يرتدي سروالاً صغيراً ممزقاً وينظف جسده بالصابون بعناية فائقة. بعد برهة، لاحظ الفتى أن ناتان يراقبه فابتسم له. غاص في النهر وسبح عدة مرات على بطنه قبل أن يرتقي الأدراج وقد زال الصابون عن بشرته السمراء النظيفة والناعمة المصقولة كغرانيت التماثيل التي تأملها ناتان في متحف القاهرة صباحاً. جذبه شعورٌ غامضٌ، إحساسٌ خفيٌّ بأن شيئاً ما يربط بينهما، توافقٌ غير بينٍ، ربما لانفصاله عن العالم وحيداً عارياً على مصطبة كجزيرةٍ نائيةٍ أو ربما الفودكا التي أكثر منها ولدت فيه هذا الإحساس.

فجأةً أوماً له الفتى الذي مازال يبتسم له بالانضمام إلى جزيرته ولم يتردد الغريب بالقبول، وجمعة لم يتردد فهذه المرة الأولى التي يقترب منه أجنبي، يا لحسن الحظ! إنه نظيفٌ عارٍ لا تفوح منه سوى رائحة النيل كما أن الغريب لن يرى حالة ملابسه. يبدو أنهما متماثلين بالعمر، ويبدو أيضاً أنه ثريٌ كباقي الأجانب، شعره الجميل ناعمٌ وطويل، يحمل على ظهره حقيبةً ويرتدي كنزةً وبنطال جينز نظيفين جداً من أحدث تصاميم Adidas. لقد استحوذ على إعجابه بطريقة تعجز الكلمات عن وصفها، ربما ببساطة وحدته في ازدحام القاهرة أو شعوره بأنه تائهٌ ليس فقط في شوارع العاصمة وإنما تائهٌ أت من عالمٍ مجهولٍ مثل ما ينتابه حين يخرج من دار السلام ويعبر السيدة زينب. حركاته ونظراته وكلُّ شيء فيه يوحي أنه مريخي يكتشف كوكبنا. تبتلعه سحابةٌ من الخجل، كما أنه لا يفهم اللغة العربية حتى الجمل البسيطة ليسأله: ما اسمك؟ من أين أنت؟

لكن جمعة وبفضل بضع حركات فهم أنه فرنسي واسمه شيء ما مثل «ناتا»: يا للمعجزة «فرنسي» من أحسن الناس على الأرض، أولئك

الذين يحبون العرب، ربما هو مثل زيدان يسكن أجمل بلد في العالم مع أكثر نساء العالم إثارة اللواتي لا يكف عن الحلم بهن.

استمتع جمعة بعذوبة نسمة ملمت عقب النيل وعانقت بشرته النديّة، في حين أن ناتا كان يشعر بالحر بدأً ذلك جلياً في أنفاسه اللاهثة كما لو أنه قطع شوطاً كبيراً جرياً على الأقدام. فاقترح له عبر الحركات أن يخلع ملبسه وينضم للسباحة معه، فطبطب ناتا على ساعته وأشار نحو الأعلى إلى الكورنيش، أدرك جمعة أن ناتا ليس وحيداً وأن هناك من ينتظره.

لعل بوسعهم الانتظار ريثما تخدم رطوبة النهر سعيير الحر الذي يتملكه، ليكون باسم النيل أجمل ذكرى يحملها من رحلته، جمعة يثق بأن عذوبة النيل لا تنسى حتى ولو ألقّت المصانع فيه نفاياتها ورمى الفلاحون فيه أوساخهم. وخاصة أن خضر السواحل لم يعودوا للقبض على السياحين بقواربهم. ألح جمعة فنزل ناتا عند رغبته، فرح جمعة مطلقاً صرخات مرح ثم بدأ الغريب بخلع ملبسه. سيروي جمعة كل ذلك في كل زوايا دار السلام، سيروي أنه أقنع أجنبيّاً بالسباحة في نهر القمامة الذي لا يبدي الكثير من المصريين استعداد ليللوا إصبعاً من أقدامهم.

خبأ جمعة أغراض ناتان تحت أمتعته ثم رميا أنفسهما في الماء، كان ناتا يسبح بشكل جيد بل وأفضل منه فتخطا دون صعوبة الذراع الصغير للنهر حتى وصلا ضفة مانيال. بدا الغريب سعيداً جداً، تصافحا وجلسا قليلاً ليستمتعا بعذوبة النسيم، تضرع جمعة للرب بألا يقفز جرد أو يطلّ متسكعاً رث الثياب فهو لا يريد لهذا الوجه الباسم أن يحزن مهما كلف الأمر، تأمل أطرافه المتناسقة وراقت له تلك البشرة البيضاء الصافية الرهيفة.

أشار له ناتان بالعودة إلى المصطبة ولدى عودتهما، أوماً له أيضاً أنه يريد تنظيف جسده بالصابون. دعك جسده من الرأس حتى أخمص القدمين وسمح لجمعة بدعك ظهره ثم جلس وكأنه لا يريد لهذه المداعبة

الزلفة أن تنتهي، فأخذ جمعة وقته بفرك كتفيه وظهره فرحاً بالمتعة التي منحها للغريب، فركه طويلاً ودعك رقبتة أيضاً لكن البقع الحمراء أبت الذهاب ثم ذراعيه وشعره، استدار الغريب لتفاجئه الدموع المنهمرة من عيني الفتى الحمراءوين، لعله من تأثير الصابون!

بحث الغريب في حقيبة ظهره تحت المتاع وأخرج زجاجة ماء وأخرى صغيرة الحجم، نظف جسده بمياه الزجاجة التي تكلف 2 ليرة في حين أن مياه النيل بالمجان، ثم فتح الزجاجة الصغيرة ومدها لجمعة وأشار له بأن يرش القليل. إنه كحول، كحول شهى بطعم الدراق، يحتاج جمعة ليترين منه حتى يحلّق إلى جنان الأرض حيث النشوة والفرح والأحلام، لكنه نزل عند رغبة الغريب واكتفى برشفة واحدة وكذلك فعل ناتا.

مدّ جمعة كنزته لناتا حتى يجفف جسده الرطب فرفضها وطبّطب على جسده بكنزته ثم ارتداها، أما جمعة فما جرّو على ارتداء ملابسه خشي من ازدياء الغريب لملابسه القذرة والممزقة.

دوت في هذه اللحظة رنة تشبه DJ صادرة من الحقيبة فيحبش ناتا وأخرج هاتفه الجوال، جوال كبير للمليونير يتحكم به بلمس الشاشة. نظر ليعرف من المتصل إلا أنه لم يجب. وقف لوقت طويل وهاتفه بيده حتى بعد أن توقف الرنين ثم فتح الجهاز، أخرج البطاقة ورمى بها في النهر.

قال جمعة في سره أن هذا الصبي يستحوذ على إعجابه بهيئته الغريبة ولطافته وبشرته البيضاء ولكن أيضاً بالجنون الذي لمس فيه. مجنون مثله، تائه في عالم واقعي تختفي فيه السبل الجيدة التي تفضي لمتع العيش. بينما غرق بأفكاره هذه، كان الغريب يطبّطب على الشاشة، ثم اقترب منه ومد له الجوال، أمسكه جمعة وتأمّله، لقد كان خفيفاً وناعماً مثل الريش، تشغل شاشته صورة خلابة للأرض أخذت من الفضاء، ثم حاول أن يعيده إلى الغريب لكن الأخير رفض بإيماءة من رأسه وضم يده بيدي جمعة اللتين تمسكان بالجهاز كأنه يقول له بأنها هدية. لم يتوصل

جمعة لتصديقه فهذا بخشيشٌ مبالغٌ به وما طلبه يوماً، ولكن ليس باليد حيلة، يرفض ناتا استعادة الجهاز مكرراً وهو يهز رأسه بقوة: «مو بخشيش، مو بخشيش»، هذه الكلمة الوحيدة التي فهمها .

صافحه طويلاً ثم عانقه خفيةً واضعاً يده على كتفيه للتو، أخذ حقيبته وتسلق الضفة الوعرة للنهر، ودّعه بإيماءة واختفى، ليظل جمعة وحيداً من جديد وكنزه الصغير بين يديه لا يدري ماذا سيفعل به؟ إلى ذلك الحين سيفغو بجوار صورة ياسين، ليلمس بيديه ذكرىً يهددها مجرى الأيام الصاخب بالزوال، ذكرى لشعاع شمسٍ اخترق ليله المعتاد كوميضٍ نجمٍ، سرابٍ مبهرٍ ...

هذا ما بقي له من الاستحمام في النيل برفقة مجهول قال أن اسمه «جمعة»، يا للأعجوبة فبعد عدة رشفات من الشامبانيا ترك نفسه لراف وبعد 3 رشفات من الفودكا سبح في مجرور؟

أخبر والده الذي كاد ينهار قلقاً وخاصةً عندما لم يجب على جواله وهو ينتظره مع مانون ولويز أمام القناة بأن I-phone قد سقط بالماء فغطس ليلتقطه . صدقه والده للتو فما زال شعره مبللاً بل وهنأه فما توقع أن باستطاعته الإقدام على مثل هذا التصرف، كما أنه سيشتري له جهازاً جديداً فور عودتهم. أدرك ناتان حين كان يدعك جسده بسائل الاستحمام في حمام الفندق أن الفودكا لم تكن وحدها الباعث على تلك الأعجوبة .

بحركاتٍ مريحة فرك الفتى جسده لتبقى ذكرى يلوذ إليها بحنين حارق كسعادةٍ مطلقة قد أفلتت من يديه إلى الأبد ثم استسلم لأحاسيس شديدة القدم لتلك المداعبات التي كانت تشع بالحنان، فاضت به الانفعالات حتى انهمرت دموعه .

يا لأسطورة القاهرة! بأعجوبةٍ جذبه الفتى نحوه ثم إلى الماء، كما لو أنه منومٌ مغنطيسياً أو منبهرٌ بسحرٍ، ربما لأن الفتى يشكل معه ثنائياً أو

بالأحرى نصفه المحتم، كأنه صورته في المرآة تسكن في شخصٍ آخر جاهزٌ ليعيش الواقع ويضيف عليه البهجة لمئة مرة.

شغل هذا اللغز تفكير ناتان لدى عودته إلى إيسي، ففكر ملياً بتلك المعجزة، بتلك اللحظة التي تصالح فيها مع الواقع المثير جداً للقلق فوراً و دون تفكير. ولكن للأسف تلتهم الأيام بوقعها الكئيب الرتيب صوراً و أحاسيساً رأت النور في فترةٍ تتلاشى هي الأخرى في الوجه القاتم للروتين المكفهر كشهر تشرين الثاني.

يلقي الرمادي بجبته على كل شيء ويجعل كل يومٍ نعيشه سلسلةً من الاختبارات التي علينا تخطيها؛ راف كان إحدى هذه الاختبارات: تدخلت والدته وتوسلت إليه أن يعود راف بزيارة في المستوصف فهو يود طلب الصفح منه، لعل هذا الصفح يساعده على تسوية انحرافه. سأل ناتان: ولكن أسامحه على ماذا؟

أجابت الأم: بأن حملك وزر موته، إنه يكابد من هذه الفكرة. كما أن الطبيب النفسي يظن أن هذا قد يكون له أثراً جيداً يساعده.

يا له من مشهد سينمائي باهت لا يطاق، كما أن راف هو من اختلق بأسه بيديه ولا بد أنه من يخلق هذه المشاعر بوسعه أن يجد طعماً مختلفاً لحياته ولم يعد يشعر بالذنب بعد حادثة الشامبانيا، راف منحرفٌ لدرجة أنه ربما يخلق هذه القصة كمكيدةٍ أخرى.

ألح والده ولويز على ذهابه فزيارةً لنصف ساعة لن تتيح له فعل شيء كما أنها ليست بالأمر العظيم وستطوى الحكاية بعدها.

يبعد المستوصف مسافة محطتي مترو بالإضافة لوقت لا بأس به لانتظار الحافلة. إنه بناءٌ مربع، كما تخيل ناتان، قصرٌ صغيرٌ يعود لعصور النهضة وبرجيه المدببين أكثر شؤماً منه، ترشح كل كآبة الكون من جدرانها المبنية من الآجر بإطار حجري.

عبر تلك الحديقة الضبابية مصدراً بالحصى صريراً مع كل خطوة،

توقع أنهم لا يسمحون للمرضى بالخروج في هذا الطقس الكئيب. روحه توشك على الغرق لكنها تعلّمت بطوق النجاة الذي ألقاه فتى النيل من كبد الذكريات لتداعبه شمسُ ابتسامه جمعة الذي استولى على جسده بطريقةٍ سحرية ودون أن ينبس بنبت شفة.

أوقفه صوت امرأةٍ نائرة الأعصاب قادمٌ من المبنى فحل دويه محل صرير خطواته لكن بعده أبقاه مبهماً. إنه قريبٌ من الهدف لكن جمعة بابتسامته أمره أن يقوم بنصف دورة.

تلاشت صورة النيل بيد أنها تطل عليه كما هي في بعض الأحيان فارضةً ذكرى لإحساسٍ بالكمال ولهجراتٍ ممتع. حقاً يكابد في هذه الذكرى ألماً: ألم المستحيل القادمة منه هذه الذكريات ومستحيل الضياع المرتمية فيه. كما أنها تتبثق في اللحظات المضنية جداً لتخلصه مثلاً من ملل يتناقل كالرصاص يتسلل خلسةً ويملأه لدرجة الاختناق فيخرج من الصف متذرعاً بأي حجةٍ بقصد تغيير الهواء الذي يتنفسه والأفق أمام عينيه.

ترخي هذه الذكرى بظلالها بقوةٍ مع مانون مما دفعه لقطع العلاقة معها، لاحظت مانون جفاهه فبذلت جهوداً كبيرة لتخفف من وطأة مراقبتها وانتباهها لكل أفعاله وحركاته ولم تعد تكيله باللوم على غيابها عنها وعن العالم من حوله. تأثرتانان بهذه الجهود لكن الأمر انتهى بالنسبة إليه.

ذاك اليوم، يوم جمعة في القاهرة، بعد أن استحم في الفندق، أرادت أن يمارسا الحب بجسده الرطب العاري ذي الرائحة العطرة، لكن ناتان تجاهلها دون أن يلوذ لأي حجة فلم يطق فكرة أن تلمسه وتهزّ أنفعال النيل الذي ما زال متدفقاً. في حين أنه ترك الفتاة ذات الشعر الأحمر تفلت منه غير واثقٍ من لقاءٍ مستقبلي، في المرة القادمة إذا جمعتهما الصدفة سيتمسك بها. قلق ناتان لا من غياب الرغبة فقد كانت تلك هي المرة الأولى ولكن من نفوره المتزايد من أي نوع من الاحتكاك الحميمي مع الآخرين. ليس ذلك وحسب بل أصبح بيدي رفضاً لحركات والده العاطفية

المعتادة، فلم تعد مداعباته لشعره وملامساته لكتفيه ورقبته تملأن الفراغ وكأنها أصبحت حركاتٌ روتينية مجردةً من العواطف الحقيقية.

تقارع تلك الذكرى الزوال، فتطرق بابه مشرذمةً أكثر فأكثر، ذكرى الإحساس بالكمال والاكتفاء الذي منحه إياه ذاك المجهول على ضفاف النيل بصمتٍ وبأنامله الماهرة والطبيعية التي هزته بشكلٍ خفي من الداخل. يؤلمه تناقض هذه الذكرى المتأججة.

تكرر أن خطر بباله أن يهيم على وجهه، حين يفرغ من الدروس، في شوارع إيسي كأنه يبحث أو ينتظر شيئاً ما فيجلس أحياناً على المقاعد في الدروب الهادئة متحاشياً حديقة رودان لئلا يلتقي بالآخرين.

في أحد الأيام، استقل المترو ولا يدري أين وجهته بالضبط، ثم نزل بعد ساعة ونصف في «سان مارتان إيتامب» لا لشيء إلا لأنها آخر الخط والأبعد عن إيسي هرباً منها، و آملاً أن يعثر فيها على مفاجآت كالحلم كأى مكان آخر على وجه الأرض. إلا أنه فوجئ باللون الرمادي الذي يعانق هذه القرية الصغيرة بمنازلها الكئيبة، إن الأماكن تشبه نفسها لا بل هناك ما هو أسوأ فقرر في طريق العودة اللامنتهي ألا يغادر إيسي أبداً إلا على بساطه الطائر بانعدام الجاذبية المسبب للدوار.

غابت تقاسيم وجه جمعة على جناح النسيان لكن النيل ظلَّ يرافقه في تسكعته وفي المساء حين يخلد للنوم. أسف أنه لم يقدم له الفودكا عوضاً عن I.phone لقد فارقه دون أن تعلقه الصور في ذاكرته، لم يعد يذكر سوى بشرته السمراء الملساء اللامعة ووجهه الباسم الدمث الذي جذبته كالمغناطيس وخاصة بالطريقة التي ملك فيها جسده ليدعكه وينظفه، طوفانٌ من الأسئلة يتبادر لذهن ناتان: لماذا هذا الانجذاب ثم هذا الهجران؟ ولماذا هذا الصبي بالذات بنفس العمر وعالمٍ مختلفٍ وكأن من الطبيعي جداً أن يلتقيا؟ أي شعورٌ غريبٌ جمعه به، أفرغ شعورٌ بأنه توأمه في قلبيهما فرحٌ هائلٌ؟

قالت له جوستين بأن نجميهما قد التقيا لا محالة، لكنه لا يؤمن بهذه الأفكار، فالأمر أبسط من مجرد توافق سخيف للكواكب رغم الاضطراب الذي يكتفه: سر لقاءهما هو أن كلُّ منهما يمتلك ما ينقص الآخر في هذا العالم وهذا ما أدركاه للفور مما دفعهما للانضمام معاً. لم يعثر ناتان على تفسير أفضل. مهما كلفت فهي فرضية شيقة ولا يمكن التحقق منها وخاصة أنها لا تحل ولا تربط.

لم تعد لعبة «Serious Sam 3» تشدهُ فقد منحته مصر ما هو أكثر أهمية من تلك المخلوقات الكبيرة المشؤومة. سعى جاهداً أن يلجأ لألعاب الفيديو هرباً من الكآبة التي تتملكه لكن واقعية الديكور في مصر جسّد أمام عينيه وبرقة ما فقدته نهائياً من حياته. قام أليكس بإعارته الألعاب الصادرة حديثاً مثل «Assassin's Creed» حيث أثارت القسطنطينية ملله أو «Call of Duty» بألعاب إطلاق النيران دون أي إبداع والتي لم تلق عنده حافزاً.

فرضت لعبة الوشاح نفسها مجدداً لتبدد بواحتها المشمسة اللون الرمادي لتشرين الثاني حيث بدأت شعلة النيل تخبو رويداً رويداً، لذا إليها عدة مرات في اليوم الواحد فور عودته من المدرسة، وفي المساء بعد تناول العشاء. لف حول رقبتة كنزة ليتحاشى الآثار الحمراء، إن الضغط يبقى نفسه لكنه لا يخلف آثاراً ملحوظة، مجرد احمرارٍ منتشر بالكاد يمكن تمييزه.

تغيرت طبيعة الحلم الهندي فلم تعد هروباً من الواقع ليحيا لحظات قوية الإحساس ومبهرة وإنما ليستعيد شعوراً بالكمال قد تعرف عليه مسبقاً. بات يدرك تماماً الجانب الوهمي للصور والأحاسيس الزائلة التي يكتشفها معلقاً بالوشاح، ويدرك تماماً المخاطر التي يجازف بها بمضاعفة المحاولات حتى ولو تحقق بدقة من قائمة الفحوصات بالإضافة لما قد يلحق بنفسه من أمراض أو حتى يودي بنفسه إلى

التهلكة، ولكن لن يمنعه شيء من ذكرى تلك الشمس التي تقتمح كبدته ليله الذي يزداد ظلمة.

تذكر خرافة لم يعد يذكر أين قرأها تقول «أننا نموت حين نجد نصفنا الآخر» طالما حكم عليها بالجنون ولكنها ترافقه الآن كظلٍ ممتعٍ ألفه بالإضافة لفكرةٍ كما يقولها العرب أو المصريون: مكتوب.

ذاك اليوم، في الساعة الحادية عشرة والنصف بعد أن دخل والده ولويز إلى غرفتهما، أطلق الجولة الثالثة لحلمه الهندي. فصل I.phone الجديد وضبط المنبه الرجاج بعد ثلاثين دقيقة. لف الكنزة حول رقبته وبدأ بدورانه السريع جاثياً على ألبوم «النجمة الغربية» ثم أبعدته ونهض فجأة ليقع كالعادة على ركبتيه أمام هالة تمثال «خيوبس» المصنوع من الجبصين المصقول كالمرآة حيث تنعكس صورة سماء لازوردية مثل صورة الهرم الأزرق، ولدى اقترابه انعكست صورته متغيرة جداً فهو في المرآة الطفل ذو الست سنوات عارياً، حليق الشعر تاركاً خصلة طويلة على الجانب يلف بشدة حول رقبته، ارتدى في نهرٍ من النور الفتان مستسلماً لتدفقاته حتى حطَّ به في جزيرة سان جيرمان المحاطة بأعشاب طويلة، على تلك الضفة أوماً إليه صبيٌ يشبهه كثيراً إن لم يكن هو نفسه بعمره الآن وكأن مجرى النهر هو مجرى الأيام. الآخر كان هو نفسه، ببشرته ناصعة البياض وطوق التويجات الحمراء حول رقبته إلا أنه منفصلٌ عنه. ارتجفت يده سعادةً حين حاول لمس صدره ليتأكد أنها انعكاس صورته في المرآة، فانفجر الآخر ضاحكاً وكذلك فعل هو، ثم أمسك الآخر بيده ضاحكاً ليغسلها ويداعبها بعذوبة يلامس أصابعه اثنتان اثنتان ويدغدغ راحة كفه. اشتد الارتجاج وغرق الآخر بموجات ضحك تعلو أكثر فأكثر. ثم استرخى يراوده هناك العيش وأسبل جفنيه، حاول أن يستيقظ ولكن تلاشى الارتجاج رويداً رويداً واختفى الآخر ثم اختفت الشمس والسماء اللازوردية وتبدد النور الفتان في كبد نورٍ معاكس يتراوح في صمت غرفة طفولته وظلالها إنها غرفته في

«سافيني» لقد كانت والدته، كانت تهمس له كما مضى «حان وقت النوم». تحولت الغرفة لفضاء لطيف مغلق، فضاء فاتر وسائل لا نور يخترقه ولا أوكسجين، أخيراً، أذنت له بعد كل هذا الزمن بالولوج إليه، تتملكه سعادة عارمة بهذا الهمس الحنون الذي صار هدهد نوم تحمله أخيراً على جناح الليل...

الذي يعجُّ بأحلام ولدتها صور فرنسا في جوال الغريب، عثر عليها صدفة حين لمس صورة زهرة على الشاشة، إن هذه الصور له الآن أعطاه إياها الغريب مع الجوال. باتت أحلامه بفرنسا تتجسد ليل نهار في برج إيפל وكل ما تبثه التلفزيونات من صور، ليس هذا وحسب بل في صور هذه العائلة وهؤلاء الأصدقاء، صوراً لا ينفك يشاهدها مأسوراً بالغنى الفاحش الذي يشرب عبر آلاف التفاصيل الصغيرة.

تجسدت أمامه صورة فرنسا بتلك الفتاة الشابة الشقراء العارية التي تتكرر صورها دائماً فتارة يحضنها ناتا وتارة يقبلها بنهديها العاريين المكورين وتارة تسرح شعرها الطويل الأشقر. كان جمعة يحلم بفتاة مثلها فلن يكون مرغماً على الزواج بها ولا أن يقدم لها الطعام واللباس، سيضاجعها دون أن تسوطه السنة الآخريين. سيتركها ليجمع ثروة ويعود إليها من جديد.

لولا تلك الصور لباع جمعة الجهاز. أخبره رجب صديقه الوحيد الذي كشف له سره بأن هذا الجهاز يساوي 500 ليرة أي ما يعادل ثلاثة أشهر من جمع علب الكرتون وبدأ يحصي له ما يمكن أن يهدي لنفسه بثمن هذا الجهاز، بيد أن جمعة قرر أن يحتفظ به ما دام لديه ما يأكل، فهو بالنسبة إليه كنز يفرقه بعالم خلّاب يلوذ إليه كلما اشتاق. سيتمكن من شحن الجهاز مساءً عند أنور مصلح الموبايلات.

ستحمي هذه الصور ذكرى لقاء نباتا من الزوال، ستمنع شطحة

الخيال تلك من التآكل مع الواقع، تلك اللحظات الاستثنائية حين لمس بإصبعه العالم الذي يحلم أن يطأه بأعجوبة ما . لامسه بحميمية أثملته لا بل أثارته . لحظات تمسكه من أن يهوي في غياهب اليأس، يدعه فيها كل ما حوله عدا تلك المصطبة الجزيرة في أعلى دار السلام، المنسية طويلاً بين السماء والأرض، أما هناك أسفل دار السلام بل في أرجاء مصر خصوصاً في ساحة التحرير، عاد الرجال ذوي الزي الأسود وكأن دم الشهداء ودم ياسين قد ذهب هباءً بل كأنهم يدهسون ذكراهم . تغير المجرمون في أسفل دار السلام، اختفى الضابط وأعوانه لتحل محلهم نفس الهيئة المرعبة باحتقارٍ معلنٍ للآخرين ووابلٍ من الشتائم يمطرون بها أطفال الشوارع، إيماءاتٌ تهدد بعودة عالم الإجرام، وعودٌ برجوع الظلم قريباً .

ساد في الحي اعتقادٌ بأن الثورة قد تمت، وحتى لدى الناس الأكثر بؤساً من يصادفهم مساءً في قهوة أيمن، وأن ملك اللصوص قد زُج في السجن وسيفرض الشعب سيادته عبر الانتخابات .

شهد مطلع تشرين الثاني معرض صورٍ علّقت آلاف الإعلانات والرايات، صور مرشحي الانتخابات البرجوازيين بربطات عنق أو صور ورعٍ نزيهٍ محبٍ للعدل بذقونٍ وندبةٍ على الجبين .

أما بالنسبة لأولئك الذين لا يتقنون القراءة والكتابة مثل رجب، فكلُّ يضع الصورة التي تمثل حزبه، فيكتفون بأن يعرفوا أن الرجل مع جهاز الهاتف ليبرالي و حامل المظلة شيوعي، ومع المدفعية سلفي أما مع الصاروخ فهو من جماعة الإخوان المسلمين . صدق البعض أن هذه الصور الورعة تطلب من المارة التصويت لهم للانتقال إلى عالمٍ جديد من الديمقراطية، بيد أن كثرة هذه الوجوه والصور لا تعني شيئاً لأبناء الشوارع والجانحين والمعرضين للابتزاز ولا للمغتصبين والمعذبين، إلا إذا أعد مرشحو المنبهات والدراجات والتلفزيونات العدة ليحلوا محل اللصوص القدماء .

بين هذه الوجوه التي نراها للمرة الأولى الملصقة على جدران دار السلام تطلُّ صور شهداء الحي التي سكنت الجدران منذ زمن، تلك الصور التي نعرفها حق المعرفة ويستحيل العبور بقربها دون أن تعلق الغصّة في قلوبنا .

صورة محمد عبد اللال الذي طالما صادفه جمعة، ذاك الشاب ذو العينين الخضراويين اللتين يسحرن الفتيات، يضع رأسه على يده بكآبة. وصور هدير عبد السليمان، الفتاة الباسمة بخمارٍ أحمر اللون. كذلك صورة الصغير محمد أبو غنيمة الذي يَغفو وجهه على صورة الكعبة الشريفة، وصور للكثير ممن صادفهم جمعة يوماً ما، أولئك الذين استنشقوا نفس الهواء في نفس الأزقة المزدحمة.

كان ينقص هذه الصور، صورة ياسين، كان بحوزة حسان صورة ياسين الشهيد بيتسم مرتدياً كنزته التي حين نادته الشهادة كان يرتديها، لكن كان يلزمه 400 ليرة ليتمكن من طباعة خمسين صورة ليلصقها على الجدران.

طالما خطر ببال جمعة أن يقوم بذلك إلا أنه ما أقدم على بيع الجهاز إلا عندما هددت صور اللصوص الجدد تغطية صور الشهداء رويداً رويداً كما لو أنهم يقدمون على كتابة صفحة جديدة تلغي ذكراهم، عندها فقط توجه جمعة إلى أحد بائعي المسروقات الذي يعرفه رجب وباعه جهاز نانا كما هو متوقع بـ 500 ليرة وطويت القضية بسرعة بعد أن نسخ الصور على CD ثم وافقت المطبعة أن تطبع كافة الصور الموجودة وبنفس السعر من أجل الشهيد، فوضع جمعة صورته المفضلة في ألبوم صور وخبأه في إحدى المقاعد المثقوبة في سيارة 504. في إحدى المرات أخرجته ليشاهد الصور، كان الأذان للصلاة يتردد في الأصقاع فتمنى في سره أن يجمعه الله مجدداً بصديقه نانا ليتعرف على أصدقائه وعائلته ويضاجع تلك الفتاة الشقراء .

الصق حسان و رجب برفقة جمعة صور ياسين في الشوارع التي مرَّ بها ذات يومٍ بطنبور الريش النتن وكتبوا على الصورة:

«الشهيد ياسين، جامع الريش/ 26 كانون الثاني».

تطلُّ صورته واسعة الكرم من بين الابتسامات المحنطة للمرشحين على المكايي والأقلام والنظارات لتقدم لكل من يعرفه خيرٌ من غدٍ غناء بل وميض نورٍ يفلتُ من جنته.

سرت الضجة في شوارع دار السلام في أحد أيام السبت من تشرين الثاني، فقد أخلت شرطة مكافحة الشغب ميدان التحرير بعنفٍ ولم تسمح لجرحى الثورة وعائلات الشهداء بالتخيم احتجاجاً على عدم محاكمة المجرمين.

أدركت مصر أخيراً أن الجنرالات في السلطة ليسوا على عجلةٍ من أمرهم وأن بعض المصريين الذين ما قذفتهم الثورة بحممها قد أضجرتهم الفوضى وحرمتهم الإضرابات من السياح. بيد أن شبان «الفييس بوك» الذين ما انقض عليهم الجوع يوماً وآباء الشهداء والبؤساء العالقين في شباك الجوع فما شهدوا التغيير المرتقب وكأن لهم موعدٌ جديد مساءً في ميدان التحرير ودُقت طبول الحرب مرة أخرى، جوبهوا بالقنابل المسيلة للدموع رمى بها رجال الشرطة وسددوا الرصاص المطاطي نحو العينين، فزف المساء أحد الشهداء بطلقةٍ حقيقيةٍ وأعورٍ لا بل العشرات.

أدرك كل سكان دار السلام لا بل أصبح على يقين بأن حكم الاستبداد عائدٌ لا محالة، سيختبئون من جديد ويتحاشون الشجار مهما كلف فهم يعلمون أنهم قد يصبحوا عرضةً للابتزاز تحت أي ذريعةٍ فيتم توقيفهم وتعريضهم للمصعق بالكهرباء والاغتصاب ثم القتل والرمي في الحاوية أو تمزيقهم إرباً.

هذه هي فرص الموت التي يلاقيها شباب دار السلام دون بصيص أملٍ يتمسكون به للإفلات منها، حتى مشجعي الأهلي أولئك المشجعين

الغاضبين شديدي التنظيم يؤلف بينهم إحساسٌ متدفق من البؤس لمواجهة الشرطة مع كل نهاية مباراة بعد أن يعدُّوا خططاً تجنب ومحاصرة وهجوم يخشاها الرجال ذوي الزي الأسود . يعبر بعضهم الشوارع ضمن عصابات تختلق الشجار وكثيراً ما يتشاجرون مع رجال الشرطة حتى قرب حصنهم في وزارة الداخلية في شارع «محمد محمود» المؤدي إلى ميدان التحرير، قلعة العفاريات تلك حيث يفيض القبو بالجثث الغارقة ببرك الدم. لم يكن بحوزة مشجعي الأهلي سوى الحجارة ومزيجٌ من المولوتوف وكرههم الشديد لأولئك الرجال المدججين المنيعين الذين لا يمنعهم شيء من الضرب بالمطارق حتى الموت وحتى من إطلاق نيرانٍ حقيقية. تكمن قوة أولئك الشباب أن ليس لديهم ما يخسروه قبل أن يزجوا بأنفسهم في معركة ضد هؤلاء الخنازير ليلقنهم دروساً بشجاعة الرجال ثم فلتخترق رصاصاً صميم القلوب وتحملهم إلى الجنة مباشرةً.

ليسوا وحدهم في هذه المعركة، انضم إليهم كل رعاع الحي الذين لا يعتقدون بعقيدة واحدة لكن داعبهم الحلم بحي أفضل يعيشون فيه، أولئك الذين يهبون أنفسهم لأعمالٍ رخيصة مقابل صحن فول في الأيام ذات الحظ الجيد، أولئك الذين فقدوا إخوتهم وأصدقاءهم وشهدوا احتضار أحبائهم جرأً قلة العناية، من لم يعرفوا سبيلاً إلى التعليم في المدرسة، كل من لم يسرق أبداً ولم يقتل أبداً، أولئك الذين يتضرعون هباءً ليل نهار للواحد القهار بأن يضع حداً لعذابهم.

حملت هذه الموجة الهائجة كلاً من رجب وجمعة لينضموا للمحاربين منزوعي السلاح والذين غمروا محطات المترو وغاروا في القطارات التي اكتظت بالناس و بشبان «الفييس بوك» والبرجوازيين الصغار الذين فزعوا من رؤيتهم يتدفقون كالطوفان مع كل مؤمنٍ بالنصر يوم ميدان التحرير.

تقتصر طلباتهم على إغلاق محاكم الجنرالات وإطلاق سراح 12 ألف

بريء تم توقيفهم وتعذيبهم والغاء حالة الطوارئ ویرحلوا، لیلتنم ألق الثورة مع مجد الانتخابات، عشرات الآلاف فی الميدان یلوحون بصور الشهداء ویطالبون برحيل «المشيرين» القدامى، ما زال الأمل الجمیل یداعبهم واشتعلت خطاباتهم بالنصر إلى أن طفت رائحة جهنمية، رائحة غاز سام حملتها الرياح من شارع محمد محمود .

یا للمفاجأة! لم یکن غازاً یدفع إلى البكاء بل یمزق الرئتين لتصبح أمامه أصماً وأعمى وخائر القوى. انحسر الحشد المرعوب نحو النيل هرباً من الغیمة التي تدنو رويداً رويداً .

أصدرت خدمة «الفييس بوك» أوامراً بأن یمسك تلاميذ إحدى المدارس بأيدي بعضهم البعض لیفسحوا المجال لسيارات الإسعاف، وانتشرت المشاة فی الميدانية هنا وهناك فی الميدان لإسعاف المختنقين على فراش الموت، الذين اصطحبهم مشجعو الفرق على موتورات، دفعة واحدة متراصين ما بین السائق والعابر .

منذ اليوم الأول، انخرط جمعة ورجب وكثيرون مثلهم مع مشجعي الأهلبي والزمالك الذين اتفقوا لأول مرة، فی الجبهة الأمامية على بعد بضعة أمتار من الميدان حيث تمسك المسلمون بمواقفهم أمام وزارة الموت التي تحميها أربعة صفوف من رجال الشرطة یرتدون زي القتلة .

جمع موعدٌ واحدٌ أهالي البلاق والدقرون ومنشوية ناصر وكل الأحياء الأخرى المفقودة، كل أولئك صفر الیدين، من لا قيود لهم، أولئك الأحياء - الأموات .

ورع بعض كرماء النفس أقتنعاً لیحتمي الحشد من الغیمة السامة وطلوا وجوههم بمزيج من الخميرة والحليب من المفترض أن یقي من التسمم فبدوا كالأشباح شاحبي الوجوه معلنين موتهم سلفاً .

خطط مشجعو الفرق للهجوم ونظموا الضربات وقذفوا خلیطاً من المولوتوف والمدخنة، تراجع المقاتلون حين انقضَّ رهط الرجال ذوي الزي

الأسود بخراطيش الغاز والرصاص المطاطي المسدد نحو الرؤوس ثم تراجعوا بدورهم أمام وابلٍ من الحجارة.

أفرغت الدراجات النارية الصينية، حالاً وقبل الهجمة الثانية، الجرحى ذوي العيون الدامية الذين يقارعون الموت بالغاز بعد أن سقطوا على الأرض تعثرتهم اختلاجاتٌ قبل أن يسكنوا تماماً ويسلموا الروح لبارئها.

رابط كلُّ من جمعة ورجب لخمسة أيامٍ وخمس ليالي، بعد أن حصل جمعة على قناعٍ واقٍ من أحد رجال الشرطة الذي قتل بضربة رأس، فقط ليبرهنوا للرجال ذوي الزي الأسود أن هناك آخرون غير كبوش الفداء. يحل محلهم آخرون لدى هبوط الليل، فيخلد رجب وجمعة للنوم لساعتين أو ثلاث على المرج أمام الموغاما، ويقدم لهم شبان «الفييس بوك» أو الإخوان ما يسد الرمق.

في اليوم الثالث، سقط رجب فاقداً الوعي مختنقاً بالغاز، فضمه جمعة على الدراجة النارية التي حملته إلى الميدان. استعاد وعيه إلا أنه بقي تحت مراقبة الطلاب الشباب بالرداء الأبيض، حيث ما زال مريضاً تسري النار في عينيه وجلده ورتتيه وتعثره اختلاجات ويصاب بالإقياء، تركه جمعة واستعاد مكانه في الجبهة.

استعاد رجب عافيته في اليوم الخامس مع بزوغ الفجر مع أنه بقي يترنح بعض الشيء. شاهد المرابطون في الميدان رافعة الجيش آتية من بعيد. خلال ساعة على الأقل، شيد العسكريون جداراً من الإسمنت والآجر لإغلاق شارع محمد محمود وعزله عن الساحة.

بقي جمعة ورجب عدة ساعات أيضاً في الميدان رغم أن الحرب قد وضعت أوزارها.

قيل في الإذاعة أن أربعين شهيداً قد أضيفوا لقائمة الشهداء خلال الخمسة أيامٍ الماضية، لقي أغلبهم حتفه مختنقاً بالغاز وبعضهم

بالرصاص. قيل أيضاً أن الانتخابات ستجري خلال ثلاثة أيام فكانت تلك الحرب عديمة الجدوى وقد سجلت على الأقل ألفي جريح من بينهم عشرات العور. أكد أحد الجنرالات أنهم همجيون وآخر قال بأنهم يستحقون الرمي في محارق هيتلر.

تقدم أحد الفتية الذي قاتل طويلاً حتى خَلَفَ العراك أدرانه على ثيابه، خلع كنزته وتقنع بها ثم كتب على أحد الجدران التي تكاد تنهار حروفاً سوداء كبيراً، إنها المرة الأولى التي يأسف جمعة أنه عاجزٌ عن فك رموز الكلمات، فطلب عون أحد الرجال الذي يرتدي «جلايية» وبدا هارياً من إحدى القرى البعيدة. كتب الصبي ذو القناع على الجدار: «لا تصوتوا، لن يفي أحد بوعوده. لن يصغي أحدٌ إليكم. لا أحد يقول الحقيقة».

عاد جمعة ذلك اليوم إلى دار السلام وهو يفكر بأن ابتسامه ياسين هي الحقيقة الوحيدة التي تجوب الشوارع. حقيقة السماء التي لا تكذب أبداً لأنها بعيدة عن البشر.

لاذ رجب وجمعة إلى مخدعهم بين الركاب وغرقوا بالنوم لعشر ساعات متواصلة. في الصباح، بدا رجب بوضعٍ سيء، مصابٌ بالدوار ولا يتمكن من الوقوف ويده مرتجفتان. قال أنه ما زال يستشق ذاك الغاز من حوله وفي كل مكان، رغب بالرحيل بعيداً من هنا.

بقي بحوزتهم بضع ليرات سيذهبون إلى أبعد مكانٍ ممكن إلى البحر إلى الإسكندرية. بالنسبة لهما كانت الإسكندرية هي الطرف الآخر للعالم ففي نزههم البعيدة جداً ما عبروا قط شبرا شمال القاهرة. ذهب بصحبتهم حسان وياسين بأخر صورة له معلقة على الجدار. اتكأ رجب على جمعة وحسان حتى وصلوا المترو، نزلوا عند محطة مبارك التي صار اسمها محطة الشهداء، محطة رمسيس. لم يكن المال الذي بحوزتهم يكفي لدفع ثمن البطاقات، فجلسوا على الأرض في آخر المقطورة أمام باب المراحيض، فالترم المراقب الصمت. أمل جمعة أن يكتشف قرى الدلتا الخلاصة مع تين

فرعون الضخمة وأسراب الطيور المهاجرة والفلاحين الذين يزرعون أراضيهم الخصبة ولا يحتاجون لشيء.

لكن مصر، خلف الزجاج، بدت منظرًا يتكرر حتى الأزل، نفس المشهد الذي تعيد آلاف التفاصيل ذكرى الأحياء المهملة في القاهرة حيث الرجال والنساء عالقين في دروب بين قريتين بأئستين، والغسيل في قنوات ماء نتنة، مدن بأزقة تحل محل الحاويات ولكن أين يلعب أفواج الأطفال بملابسهم الرثة والذين فتحوا أعينهم عليها.

نزلوا في محطة سيدي جابر وهي المحطة قبل الأخيرة، شعر رجب بالتحسن مع هواء البحر العليل. سيدي جابر حيٌّ راقٍ يفضي إلى البحر، حيث تضيء الشمس المائلة للمغيب والنسمات العليلة شفافية هواءٍ نقيٍّ لا غبار فيه، مشهداً ما رأوه في حياتهم. على ضفاف مصر تبدو الإسكندرية مخضبةً بالعالم الآخر؟ عند مفرق أحد الشوارع خلف الكورنيش الذي تعبره آلاف السيارات يلوح الفراغ مترامي الأطراف. لعلهم يموتون ألف مرة قبل عبور هذا الاوتسترد وخاصة برفقة رجب متناقل الخطى. قفزوا من فوق الحاجز ليجلسوا على الصخور بين الصيادين، فتلقى مياه البحر بأمواجها اللطيفة على أقدامهم.

نشر جمعة صورة ياسين وابتسم للأفق. تلوح من بعيد بواخر ضخمة يجوب فيها البحارون الأحرار المحيطات. عبق المكان برائحة البحر والسمك فاستنشق جمعة بقرب ياسين ريح السعادة والحرية.

خلف الأفق البعيد، فرنسا بلد «ناتا» حسب قول حسان. «ناتا» الذي لن ينساه أبداً. تمدد رجب وحسان على الصخور وأغلقوا أعينهم في وجه الشمس.

أما جمعة فعلق ناظريه في الأفق نحو البلد البعيد يداعبه حلم السفر لعالمٍ أفضل حيث تنتظره الغربة.

